مدينة الغيوم

مجموعة قصصية

٢٠٠٥

لوحة الغلاف:
نشر الغسيل، ألوان زيتية على قماش، للفنان "ضياء عزيز ضياء"، بإذن منه.

حقــوق النشــر
الطبعة الأولى ٢٠٠٥

رقم الإيداع
١١٩٧٧ / ٢٠٠٥
الترقيم الدولي I.S.B.N
977 - 383 - 019 - 5

إيتـــــراك للنشـــــر والتـــوزيع

طريق غرب ألماظة عمارة (١٢) شقة (٢) ص.ب : ٥٦٦٢

هليوبوليس غرب – مصر الجديدة

القاهرة ت : ٤١٧٢٧٤٩ فاكس : ٤١٧٢٧٤٩

مدخــل:

عليَّ أن أشكر الفنان "ضياء عزيز ضياء" على لوحته الرائعة "نشر الغسيل"، التي أذهلتني، وقفت عندها، لم تفارق عيني حتى كلَّمته ليأذن لي فتُشرِّف غلاف مجموعتي هذه.

ومن أجلها احترت في اختيار اسم المجموعة، أخيرًا وقفت عند "مدينة الغيوم".. رغم عدم تطابقها مع ما توحي به اللوحة المشرقة للفنان "ضياء".. لكني أعطي لقتامة الغيوم قبسًا من الضياء..



محمد بن عبدون



رأيته شابًا في حوالي العشرين عامًا يعالج نايًا، ويعزف لحنًا جميلاً، كانت ليلة قمرية، يقوم مستمتعًا ما بين وقت وآخر بالمرور بين الشجر والزهور وقد يلتقط من الأرض ما سقط، يلمح أشباحًا من طرف خفي ويظهر لا مبالاة بما يسير في الحدائق الخلفية للقصر، ولكنه يسجلها بنوع خاص من متعة رؤية العشاق، كان له أن دخل مرات اللعبة، فالسيدة التي هي آنسة وأميرة جميلة محبة تواعد الحبيب عند إشراقة القمر في الحدائق الخلفية، تجهز الوصيفة بملابس مماثلة تمامًا لملابسها لتكون بديلة عند الخطر وكم حلّت الوصيفة ضيفة على السجن الصغير في القصر، وكم بادر محمد بن عبدون بمد يد المساعدة بأكل أو بفتح الذراعين المربوطين ثم ربطها قبيل زيارة السجان.

محمد يعزف ألحانه الشجية يمر قربه حامل الدفوف والصناجات ويقول له إن أنغامك جميلة لو سمعك قائد الفرقة لأخذك لتعزف معه الموشحات، لكن محمدًا لم يكن يهمه إلا عمله، زهوره والأسود الحجرية يلمعها ويحاكيها وأحيانًا عندما لا يجد ما يعمل ويكون المكان فارغًا، كان يزيل ملابسه ويبقى بالسروال الداخلي فقط، ويجعل الأسود تنثر عليه من نوافير مياهها مستمتعًا.

ومحمد بن عبدون لم يكن غرناطيًا أصلاً وصل من مالقة بعد استيلاء القشتاليين عليها، وكان ممكنًا أن يدعى بالمالقي إلا أن عدم وجود شخص آخر يحمل نفس الاسم أعفاه من ذلك. هرب من التنصير أو القتل، وكان دائمًا يدور في خلده أيهما أهم الدين أم الوطن، جزم مرات عديدة أن الدين أهم لكنه في ليالي الحزن عندما تنهمر ذكريات مالقة والطفولة ورائحة أمه وخبزها الشهي الساخن وحكاياتها التي لا تمل، وبنت خالته صفية ولثغتها

الجميلة بالراء، وكان موعودًا بها، وبيتهم الجميل ذو الشبابيك الخشبية، وزهور النوار تحيط به يشعر بحرقة تكوي قلبه، يستغفر الله ويشتري الدين بالوطن. ويقرأ الفاتحة على روح أبويه ويأتي سؤال حارق ترى بأي أرض أنت يا صفية، ربما رحلت للمغرب العربي، ربما نقط في فمها نقاط التعميد، ترى هل صار اسمك (صوفيا) تأتي دمعات حارقات على وجنتيه، يلجأ للرجولة الرجل لا يبكي، لكنه ينهمر بعدها بالبكاء حتى ينام.

في القلب غصة، وهؤلاء القشتاليون لن يتركوهم، سيطاردونهم في كل مكان وتحت كل سماء، والعرب أعراب، والقصر لا يشعر أن هناك من يهمه الأمر كأنهم مستسلمون لقدر مكتوب ليس منه هرب، لماذا لا يجندون ويجهزون، ألم يقل الله لهم ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، فإما موت بشرف وإما حياة تستحق أن تحيى، القصر لم تتغير طريقته كل شيء كأيام السلام، قيل إن الأمير أبا عبد الله الصغير اتفق مع نصارى لا يدري كنههم محمد بن عبدون، لكنهم على الأغلب من بلاد الغال، وهؤلاء سيساعدونه ضد القشتاليين، محمد يهز رأسه عجبًا نصارى ضد نصارى!، لا ورب الكعبة، ما حك ظهرك مثل ظفرك، لكن الأظافر مقطعة أو أنها منمقة، يا رب الكائنات. ما الذي حدث للأمة؟ أين صقر قريش وعبد الرحمن الناصر؟، هل صار نسلهم رمادًا؟، يا راعي الحمراء، ماذا أرثت؟!!

وحدها الأميرة الأم تلف بالقصر لا يهدأ لها بال، تبحث دومًا عن أبي عبد الله الصغير، لكنه يهرب منها، فلا تجد إلا سجادتها والدموع.

وجوه غريبة وصلت في ليلة ليلاء لم يصدق محمد بن عبدون ما يرى، قشتاليون بكامل أزيائهم ورياشهم وخيولهم السوداء وبوابة القصر تفتح لهم

على آخرها، لم يقرب نايه، تلك الليلة ولم يقربه بعدها أبدًا، وإن استقر في جلبابه الداخلي، راح يسترق السمع، ورقتان كبيرتان تقرآن، ورقة بالقشتالية فيها التسليم وفيها أن أيدي القشتاليين ستطول كل شيء، وورقة بالعربية، يطمئنون السكان على أملاكهم ودينهم، وعباداتهم، ولكن كان هناك بند، لأبي عبد الله الصغير الخروج بكل ما يملك من ذهب وفضة وبكل ما يستطيع حمله بعد تسليم مفاتيح المدينة.

لم يتمن محمد بن عبدون يومًا أن يكون هرقل كهذا اليوم، تمنى لو يستطيع أن يحمل سواري القاعة ويهز سقفها ويصرخ: (عليَّ وعلى أعدائي يا رب).

لكنه لم يكن، بقي بحسرته، وانتظم الجميع في عمل دؤوب كل يجمع وبدأ التحميل على خيول وبعربات، ومحمد فاغر فاه لم يستطع أن يكمل المنظر، يقولون إن الأميرة الأم دخلت غاضبة على أبي عبد الله الصغير، ويقال إنها وجدته يبكي، فقالت له: (ابك كالنساء على مُلك لم تصنه كالرجال) لكن محمد بن عبدون ما سمع شيئًا من هذا وما رأى، وما إن سارت الأحمال بما حملت، أيقن أن القشتاليين آتون لا محالة، ساق رجليه للريح ومضى، أي أرض تحويك يا ابن عبدون ولم تبقَ أرض، راح للغابات، هناك وجد ربعًا مثله هاربين مما هرب منه، دخل بينهم يتقاسمون العنب والفاكهة ويحاولون زراعة الحب، لكن الأيام لا تمر سلامًا، تأتي جحافل القشتاليين ويكبلون من يكبلون ويسحبونهم إما الترحيل وإما القتل، وإما قطرات التنصير، محمد، نايه في جيبه، محمد يفتش، الناي ألعوبة الشيطان، أألتعبد للشيطان؟ معاذ الله.

- أتؤمن بالمسيح؟

- نعم.
- أهو الرب؟
- الرب هو الله.
- هو ابن الرب؟
- لم يلد ولم يولد.
- من هو الذي لم يلد ولم يولد؟
- الله.
- والمسيح؟
- من روح الله، أيده بروح القدس.

يلتفت عليه القسيس، ويقول له:

- أتؤمن بمحمد؟
- هو نبي الله.
- (لا) يصرخ القسيس مغتاظا، محمد ليس نبي الله.

محمد بن عبدون يبلع ريقه، يضربونه لعلهم يخرجون الكفر من روحه، لكنه يصمد، بعد اليوم العاشر محمد يكون جِلدًا على عظم لا يعرف الكلام ولا أين هو، يقررون آخر أمل إما يستنصر وإما يُحرق لتطهير جسده خاصة وهناك بينة على رضوخه للشيطان (الناي).

تُجمع جحافل الناس للتنصير وتبدأ القطر في الأفواه التي أرهقها الجوع والعطش والتعذيب، يُسحب محمد ويتلى عليه اسمه بعد التنصير، ويحاولون فتح فمه محمد مغلق الفم، محمد يستجمع قواه يرفع الأصبع الشاهد ويظهر الصوت جليًا يهز القاعة المليئة بالناس (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله) ويسلم الروح.

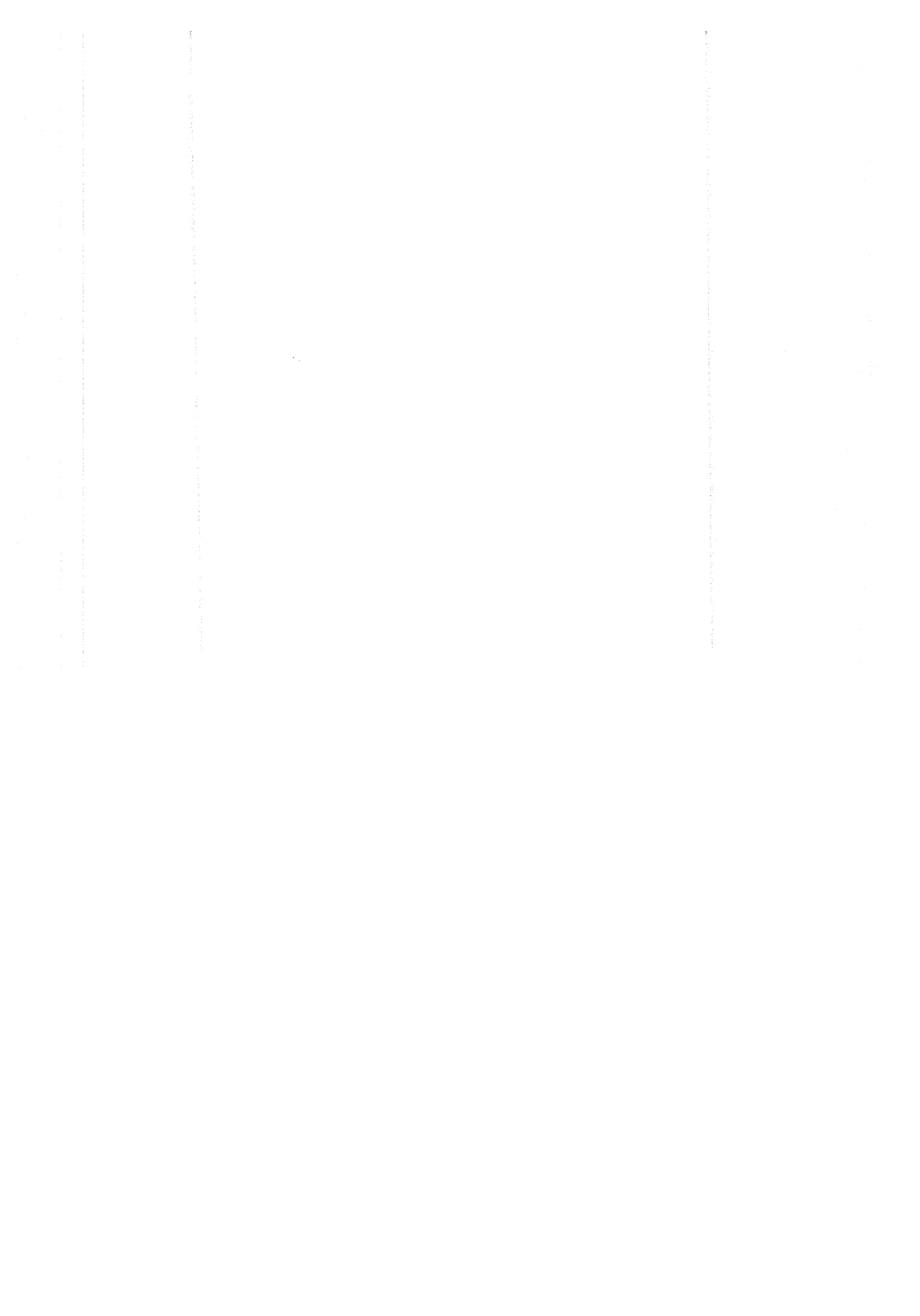


تهتز الجموع برجفة وتنهار الدموع وتكتم الأفواه في صدرها شهادة لم تنطق. بينما الأفواه تتلقى قطرات التعميد.

ويقررون حرق جثة محمد أمام الكاتدرائية الكبيرة التي كانت أصلاً الجامع الكبير. ويجبر الناس كل يجمع حطبة صغارًا وكبارًا.



بانتظار إبراهيم



كان جميلاً، كنت أراه أروع الرجال، لم يكن ينشغل بغيري، عندما أسمع دندنات جرس رقبة حماره الحساوي الجميل، أطير أسابق الريح له، أتعلق برقبته، يرفعني إلى فوق وكأنني أصل إلى أعلى نقطة يفكر بها خيالي الصغير..

تنهرني أمي كثيرًا عن ذلك تقول إن البنات لا يجوز أن يتعلقن بغير آبائهن وأعمامهن وأخوالهن، لكنه عندي كان كل هؤلاء.. لذا كنت أتحمل نهرها ولا أناقشها فيه كعادتي إذ يدعونني [طويلة اللسان].

طفلة السادسة أنا، كنت بموعدي التموزي الصباحي، أهب مبكرة صباحًا كي أكون في استقبال إبراهيم بعد ساعة..

ما إن أسمع دقات حوافر حماره إلا وأركض له بكل ما أملك من فرح طفولي وحبور، ثم أستلم القفص الصغير الذي يحضره مخصوص لي، لأرى تشكيلة جميلة من رطب البصرة بألوانه الزاهية، أصفر كالذهب ووردي وأحمر فاتح وغامق، كذا أحجامه المختلفة كاختلاف الألوان، ولا ينسى أن يخصني بالرمان أو التفاح الأخضر الصغير ذي الطعم الحامض حلو.

أركض به لمنزلنا وأحضر طاسة اللبن وعلى وجهه تسبح قطع الثلج وقطعة من الزبد كنت قد غافلت جدتي وأخذتها.

كنت أدعوه عمي وكانت البنات يضحكن مني، كيف أدعو حمّارًا بسيطًا بلقب عمي؟!، لا يهمني أمرهم إذ كان عطوفًا حنونًا..

الأمر كأنه البارحة، طفلة السادسة بالزقاق تركض، من رأس الزقاق المترب، لرأس، علّها تسمع دقات الجرس يعلن القدوم، لكن الساعة السابعة تمضي والثامنة، تعلو الشمس ولا يحضر إبراهيم، وأحضر طاسة اللبن



والثلج يطوف فوقها خوفًا أن يأتي جائعًا عطشًا، لكنه لا يأتي، أجرر أذيالي نحو البيت، تزجرني أمي من الدوس على السجادة بأقدامي المتربة، وكان التراب الأسود يغشى قلبي الغض، أين إبراهيم؟؟

قالت جدتي:

الغايب عذره معاه.

قالت أمي:

لعل الحَر لم يعط فرصة للفلاحين لجني الرطب.

وأنا في داخلي غصة لازلت أذكرها، كأنها البارحة.

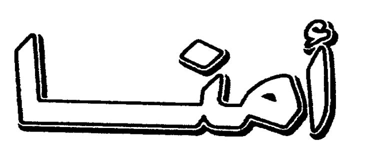
في الغد دارت أمي وجدتي نظريهما عني، عندما سمعتاني أقول: سأذهب ربما يعود إبراهيم!

بلعت كلاهما غصة ثم قالتا: لا تذهبي.. إبراهيم ذهب.. إلى السماء.

نظرت للسماء لعلي أراه لم أر إلا شمس تموز تحرق عيني، في الليل رأيت القمر قلت لعله ينام الآن فوقه وسيراني، بل كنت أحيانًا أنشد أناشيد المدرسة فوق السطح علّه يسمعني.. مضى زمن وجاءت أزمان، لكن كلما عاد موسم الرطب تذكرت إبراهيم، قرأت الفاتحة وجعلت ثواب مأكله له..

قد ننسى أحداثًا كثيرة لكن أحداث الطفولة دائمًا تبقى الأمتع نغرف منها لنستزيد بذكرى من أحبونا وأحببناهم..

٢ / ٨ / ٢٠٠٠م


أمنا



أمُّنا، أم الكرم والجود..

أمنا، لله درها، امرأة معجونة بالكرم. تفتخر بانتسابها لجدها (حاتم)، تفتح كتاب شيخنا الجليل (الجاسر)، لترينا اتصال نسبها بـــ(طي).

لأمنا معشر لا يمل، ضحكتها تدخل القلب، لقمتها هنئية، ورائحتها مسك وعود وشيح.. لها وشم داخل قلوبنا.. كأنما كل نبضة فيه تردد لحن حبها..

كرم أمنا لا حدود له. نريد أن نفخر بكرمها يوم تذبح شاة من شيهاتينا، أو تعطي أحد قدرينا. لكن كرم أمنا ونخوتها يجعلانها تتصرف كأنها تغرف من بحر لا ينفذ، إذا اشترينا خضراوات وفواكه لمنزلنا نراها في اليوم الأول ثم تختفي، قِسم لبيت الخال، وآخر لبيت العمة، ونصيب للجيران، وهكذا..

الطبخ لا نشم رائحته في منزلنا إلا وتذهب الأطباق لبيوت الجيران، (أمهم مريضة، أو تلك لا تعرف طبخ الكبسة والمطازيز، وأخرى تتوحم على سمك، ولا تتحمل رائحة طبخه، والبعيدون جدًا خادمتهم سافرت، وأمنا تقوم بالمهمة).

سكن أمريكي وزوجته بالقرب منا، وفرنسي وأسرته مقابل بابنا، لا ندري كيف عقدت أمنا صداقة معهم ولا بأيَّة لغة معهم تتفاهم. وأصبح للقهوة بالهيل والزعفران والتمر طريق لبيتهما.

قلنا لأمنا:

يا أمنا، إنهم لا يعرفون قيمتها، وربما لا يستسيغون طعمها.

قبل أن تجيبنا، طُرق الباب، كان الطارق يسأل بعربية مكسرة عن القهوة والتمر. أضفنا لمصروفنا مصاريف جديدة للقهوة والهيل والزعفران، وطارت عذوق نخلنا عِذقًا بعد آخر..

أمنا نحبها، أوصانا الله ورسوله بها خيرًا.

لا نشك في حبها لنا، وحنوها علينا..

أريحية هي، تزيح هموم الناس، وتحملها نيابة عنهم.

يدها أياد ممدودة لكل محتاج، أحيانًا كثيرة لمن لا يحتاج أيضا..

تؤلمنا علاقة أمنا بأم سعد وهي جارة غير بعيدة.. وحديث أمنا وأم سعد يدمي قلوبنا.. وندفع ثمنه في كل لحظة من عمرنا..

الخالة أم سعد امرأة داهية. لا نعلم كنهها، تتغير كما الريح، تدّعي أشياء ليست لها.. وأمنا صابرة راضية محتسبة الأجر والثواب..

نذكر يوم خنقت عصافير أمنا الجميلة.. كانت العصافير تغرد كل صباح ألحانًا جميلة تشكر الواحد الديّان، في موسم الحج ذهبت تلك العصافير وكانت كأنها تقول (لبيك اللهم لبيك). كانت إذاعتنا تنقل شعائر صلاة الظهر والعصر جمعًا وقصرًا. عندما تسللت أم سعد نكاية بنا وبأمنا لتخنق تلك العصافير الجميلة..

كرهنا أم سعد، واستبد بأمنا حزن عميق..

لله در أمنا من امرأة صابرة.. أتتها أم سعد بعد حين تشكو قلة ذات يدها.. حجز الدائنون منزلها، وكادوا يبيعون أثاثها بالمزاد العلني..

طلبت أمنا أن نُسكن أولادها غرف نومنا، ففعلنا. أنزلت قدر طعامنا لهم، فأكلنا الفضلة ساكتين، ألبستهم ملابسنا فرأينا كم ملابسنا تصبح أجمل إذا لبسها غيرنا.

تحمسنا مع أمنا وأسكناهم شغاف قلوبنا، تنازلنا عن أسِرَّتنا وملاعبنا ومسبحنا الوحيد.. ونال أبناء أم سعد عطفًا وحنانًا لم ينله أحد، وكادوا ينسون بيتهم القديم، لكن أمنا الرؤوم ــ جزاها الله ألف خير ــ شمّرت عن ساعديها. باعت قلائدها وخلاخلها، أساور أخواتنا، وما لم تدفع أجلته أقساطًا على ظهورنا.. مع الأقساط ترتفع الفوائد، ونحن ندفع.. في الحر أطفأنا المكيفات، وفي البرد تكدسنا في غرفة واحدة لندفئ بعضنا.. الماء نقطره على أنفسنا مرة نغتسل ومرات نتيمم، وهكذا..

قلنا لأمنا:

يا أمنا، إننا نحبك ونقدر نبل أخلاقك، ونريد أن نبرّ بك لكن.. أم سعد وأبناؤها لم يعودوا بحاجة، هم يعلمون، يسافرون ويمرحون، نسمع أغانيهم وتكثر حكاياتهم.. ونحن ندفع الأقساط عنهم.. تفاهمي يا أمنا الغالية مع أمهم، فلم نعد نطيق، يبست بطوننا، وتشققت أقدامنا!!.

أمنا الحبيبة، نظرت لنا نظرة ريب وكأننا أبناء عاقون.. وقالت:

ــ هل ترضى ضمائركم أن يقال عني سوء؟!!
ــ هل ترضون أن تذهب كلمتي هباء؟!!
ــ ألا يخجلكم أن لا أفي بوعدي؟!!

قلنا:

لا. وقد نكسنا رؤوسنا خجلاً..

جلبنا أوراق ديون أم سعد، نثرناها أمامنا..

ديــن رحلة بحرية، دين رحلة صيد.. شراء يخت فاخر.. شراء سيارات تراثية.. أطقم وعقود ومجوهرات.. ديون حفلات كبرى..

قلنا للدائنين:

جَدوِلوا ديونكم..

مسحوا على أفواههم الرطبة وقالوا:

نعم نجدولها..

قلنا:

خيرًا.

قالوا:

على خمسين عامًا.

قلنا:

نعمة، سندفع ويدفع أبناؤنا من بعدنا.

قالوا:

والربح يتضاعف.

قلنا:

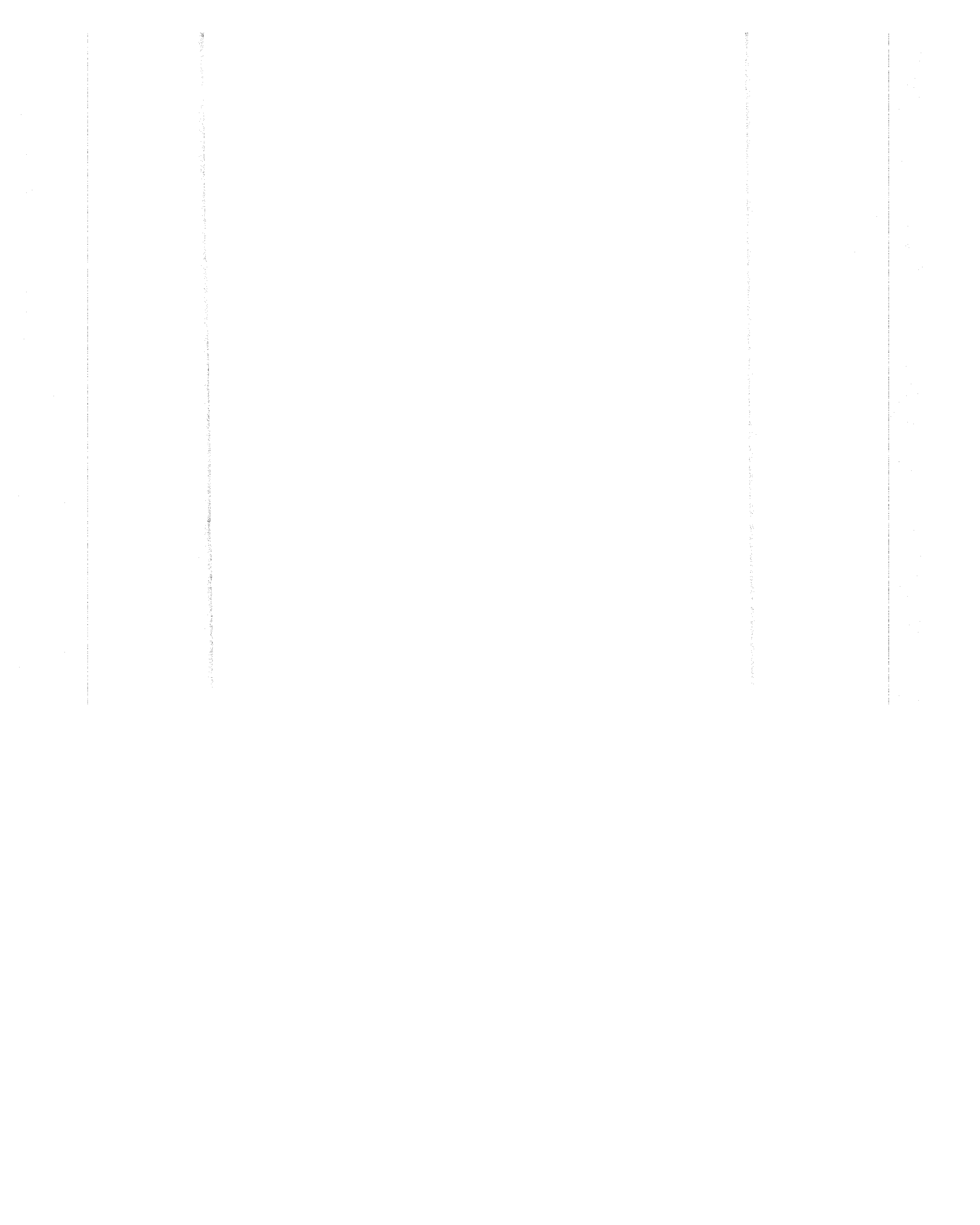
لا.

أصبحنا نعمل ليل نهار.. بعنا وبعنا ولم يبق ما نبيعه..

نركض نسابق الزمن لنفي حقوق الدائنين.. حتى فوجئنا بهم يحجزون نظر أمنا..

١٩٩٣م

الوجع الضائع



نملأ الكراسي، أمامنا شباكان.. واحد نسلم فيه الوصفة الطبية، والثاني نستلم منه الأدوية..

الصيدلانية، تنادي بنبرة عالية مستعلية:

نورة مصلح، سعدة المحمود، هيا مبيريك..

تتقافز النسوة أمام النافذة التي تُظهر جزءًا من وجه الصيدلانية، ترمي لهن الأدوية (حبة مساءً، وحبة ليلاً، وهذه حبة عند الوجع) وتستمر تجادلها إحداهن الدواء ليس هو، تتجادل معها ثم ترفض الكلام وتعيدها للطبيب، تنفعل المرأة، يكاد يتطور الموضوع إلى تشابك بالكلمات..

لكن الصيدلانية تنسحب.. يخيم السكون، بعد أن حاولت سيدة حايلية التدخل للتخفيف..

يسود الصمت، ثم يتململ الكلام فيُهَمْهِم، ثم ينطلق تتجاذب الحاضرات أطراف الكلام.. الأمراض، العين، الحسد، السحر، الأدوية الشعبية في عقر دار الطب الحديث..

صامتة أنا..

تستحثني جارتي للكلام.. تسألني:

ماذا يؤلمك؟!

أمد يدي إلى رقبتي.. تقول:

هالأيام الهواء متغير وكل الناس حلوقها توجعها..

لا أعلق.. تستفزني للكلام:

متزوجة؟!!..



أشير علامة لا..

أين تعيشين؟.. عند أمك!!..

أهز رأسي أن لا..

- عند إخوانك؟!!..

- تشتغلين؟!!..

أهز رأسي لأسفل لأعلى

نعم..

تفرح، تلتقط رأس خيط.. وأين تشتغلين؟..

أصمت.. وأنا أضع يدي على حنجرتي..

بالرئاسة؟!..

.. لا..

بالصحة؟!..

.. لا..

بالمدارس الأهلية؟!..

.. لا..

حيرتها، أين يمكن لامرأة أن تعمل بغير تلك الجهات؟..

تتفحصني جيدًا. كفيّ، وما بدا من قدميّ..

أقول عن لوني تلطفًا سمراء، ولكني فحمية اللون..



تهمهم المرأة المجاورة لها.. تلتقط الهمهمة، وتقول بما يشبه الهمس:

طقاقة؟!..

أشير: نعم.

تفرح وكأنها وجدت حلاً للكلمات المتقاطعة.. ترد:

إيه.. هذا وجع الحلوق.. والبارحة ليلة خميس.

أكاد أشهق ضحكًا.. وأنا أمسك بحنجرتي.. فعلاقتي بالأغاني لا تتعدى سماعها بين آونة وأخرى..

وكل ما في الأمر أنني لم أرغب الكلام.. وكل ما يؤلمني نغزة خفيفة على كتفي الأيسر.. تخدر كل ذراعي..

وأحالتني طبيبة القلب للفحص بالرنين المغناطيسي، مع كمّ من الأدوية أنا بانتظارها!!



الحاج عمـــر



البعض يطلق عليه عمر باشا، تعرفه مدينة الهفوف، أنيق أبيض اللون، يردون أصله أحيانًا إلى الأتراك وأحيانًا إلى أم إيرانية، تزوجها والده خلسة من أم أبنائه..

وعمر باشا أو الحاج عمر، رجل أنيق كما قلنا، جميل الطلعة لكنه يحمل كل وساوس العالم.. يخاف الموت، وكأنه يقف على بعد خطوة منه، لذا فهو يتطير، لا يصافح أحدًا رغم ما يعرف عن أهل الاحساء من حميمة تتمثل بالضم والتقبيل، لكنه إن اضطر للمصافحة، عاجل بإخراج قنينة مطهر من جيبه ومسح كفيه.. ولا يدخل المسجد إلا بسجادته الخاصة، يخلع نعليه مرغمًا بعد أن يلبس شرابًا كشراب أطباء العمليات الجراحية، يخلعه قبل أن يلبس نعليه ثم يرميه، ويحافظ على نعليه، فلا يتركهما عند باب المسجد، إنما يضعهما حذوه.. وكم غافله الصغار ورموهما خارجا وجلس القرفصاء، حتى يبتاع له حذاء جديد.

عمر باشا.. أو الحاج عمر، لم يحج مطلقًا وسآتي على سبب عدم حجه، وقد أطلق عليه اللقب تقديرًا لسِنِّه، فهو لم يتزوج فينجب كما جرت العادة ويدعى بأبي فلان لذلك سموه "الحاج عمر".. يخاف الأمراض والأوبئة.. عندما ينتشر الزكام وأمراض البرد لا يخرج إلا والكمامة تحيط بفمه وأنفه.. أما إذا سمع عن مرض ما، فهو يطلب من الصيدلاني أن يعطيه الأدوية الواقية.. ينصحه الصيدلاني بأن لا داعي لذلك إلا أنه يصر، ولأنه مثقف ويعرف الإنجليزية وقليلاً من التركية والفارسية، لذا فهو يبحث عن الكتب التي تبحث في المرض ذاك أو هذا، ويقيس على نفسه.. فهو والحمد لله لا ترتعش يده.. إذًا ليس لديه بداية لمرض الرعاش.. وشجرة عائلته خالية من أمراض السرطان، ومن بعض الأمراض الوراثية كفقر الدم المنجلي



المتفشي كثيرًا فيما حوله، فهو يحمد الله ويصلي ركعتين شكرًا ، لنقاء دمه.. يحب أكل الفواكه والخضار الطازجة، إلا انه يكاد يهريها غسلاً بـ (البرمنغنات) وقبلها بالماء المغلي مسبقًا والمبرد، ثم الصابون، لكنه أخيرًا سمع إنها تُسقى بمياه غير نقية، فكاد أن يجن بعد أن تقيأ كثيرًا.. واتجه إلى لحوم الدجاج والبيض الطازج، ثم علم للأسف أنها تطعم بأغذية مسرطنة وكاد يجن وتوقف عن أكلها..

أثناء حرب الخليج، لم يكن يأبه للحرب، أكثر خوفه من السموم التي ستنشرها بالجو، فما كان منه إلا أن هاجر أثناءها إلى مصر.. وهناك سمع من يقول إن مياه النيل تحوي دودة البلهارسيا.. فزاد تطيره تطيرًا ، وأصبح يغلي الماء قبل استعماله، وقبل أن يشربه.. لدرجة أنه في يوم ما، كاد يحترق فمه، فهو عطشان جدًا ، فلم يستطع انتظار الماء حتى يبرد..

ونعود لحكاية حجه، كان أكثر من مرة مستعدًا للحج، وجهز الإحرام ومستلزماته، ودفع رسوم الرحلة مع حملة مشهورة، لكنه عندما يتذكر الازدحام ووفود الحجاج من كل أنحاء الدنيا بما في ذلك الدول المشهورة بالأمراض المختلفة، يتراجع. وهكذا بقي بلا حج..

عمر باشا بعد أن وضعت الحرب أوزارها لم يأت للمنطقة الشرقية، تذكر أصدقاء له بالقصيم فسافر إليهم، وقرر أن يعيش هناك حتى تفقد البيئة ما امتصته من الحرب.. هنالك التقى بدويًا يرعى الغنم وهو في عز نشاطه، وعمره يفوق الثمانين..

قال له:

حدثني يا أخا العرب.. كيف أنت كذلك.. ألم تشتكِ من أمراض مطلقًا؟..

قال له البدوي:

مطلقًا.. أنا أتغذى تمرًا وسمنًا.. وحكى له حكاية التمر والسمن الذي لا يتعفن أبدا.. وبدأ عمر باشا يتجه للتمر والسمن.. عمر باشا لا يعلم أنه مصاب بالسكر.. والسكر مرض وراثي لم يره يظهر عند أهله من قبل..

عمر باشا راح في غيبوبة سكر كبيرة، لدرجة أنه مات وهو لا يشعر بالموت..

١٢ ربيع الأول ١٤٢٠هـ



البحر والموج
وضائعة في بحور الله



حافيةً كنتُ، الموج كان يسير هادئًا، يقبل وجه الشاطئ.. كان الرمل حنونًا عطوفًا، نديًا بماء البحر..

رحت أجمع القواقع.. أنثرها.. أصنع من بعضها بيوتًا، أو أعلامًا.. أُدخل يدي في عمق الرمل الوردي.. ألملمه فوق قدمَيَّ.. أشعره يهبها دفئًا.. ثم أدفن نفسي بالرمل.. أتمدد معه ذرةً ذرة؛ يا رمل، يا بحر، أيتها الشمس المشرقة المحرقة.. أيامك باهتة يا شمس.. اسطعي أكثر.. ابعثي أشعتك أقوى انثريها على وجه البحر.. دعيه يعود لنا مطرًا.. رذاذًا ناعمًا يبلل الشعر، وديمًا يسقي الشجر..

طقطق يا مطر، على البيوت على النوافذ، خذ كل ساعات الضجر.. تعال يا مطر ادخل إلى عمق الأعماق.. اغسل دواخل الأنفس.. تغلغل انفذ إلى الداخل.. اغسل كل الصدأ.. ثم عد فعانق البحر..

حافية أنا كنت.. ورمال البحر هادئة حنينة، دافئة.. أرسل بصري إلى البعيد.. أُبعده أكثر.. أبحث في داخلي عن تلك اليمامية.. أعرك عيني.. قالت لي يمامية في داخلي: لا تعركي عينيك.. دعيهما.. منذ أن جاء الشجر يزحف.. وعيناك عميتا..

لا أستطيع أن أدرك أكثر من أن الأزرق يختلط بالأزرق من بعيد.. يمتزج.. أحس أن البحر يشكو آلامه للسماء.. يحكي لها ما فعله البشر.. يقول لها عن تلك السفن المثقلة التي تنشر الدمار به أين سارت.. يحكي لها عن الدماء التي امتزجت به.. عن السمك البشري الذي تعدى سمكه..

حافية أنا.. والرمال تسخن تحت قدمي.. حتى تلهبهما.. أرفع قدمًا.. أنزل أخرى.. أسمع صوت البحر يهدر.. يهدر ثم يطير.. كل البحار

تطير.. تعتصم برب الخلق من شر الخلق.. الأرض تصبح يبابًا.. السمك واللؤلؤ والمحار كلها تشهق وتموت.. والبحار تطير في الأعالي.. تطير تطير.. ويموت البشر عطشًا بعدما نفق نصفهم جوعًا.. أما من مات عطشًا.. فقد كان قد ارتوى حتى الثمالة.. بمناظر من مات جوعًا.. عندها بصقت الثعالب والذئاب قرفًا..

لا زلت حافية.. والبحر يصخب.. وأنا من بعيد أنظر.. البحر تعد تحت قدمي.. أفرك عيني أحقًا عاد البحر أم أنا التي أحلم..

البحر يهمس للشاطئ.. تلك اليمامية دائمًا تشذ عن القطيع.. تخالف القطيع.. ترسل بصرها إلى بعيد بعيد.. والبعيد سيقرب يومًا ما.. لكن لا أحد يصدق هذه اليمامية.. مشيت له.. والشمس قد شقت خدرها.. ألقيت له بقواقعه.. ومحاره.. سألت أمواجه الهادئة: هل تأكل الموجة الكبيرة تلك الموجات الصغار؟.. قهقهت مني كل الموجات ومضين يعبثن ويتصارعن.. وتغني كل واحدة للأخرى.. أغنيات جنيات البحور السبع..

وقفت بها.. أبحث عن رمل ومطي.. قهقهت الأمواج الصغيرات وتغامزن.. وقلن: "تلك اليمامة لا زالت تحلم .. لازالت تتذكر المطي"..

غمزن أكثر وضحكن.. كانت الأقمار الصناعية ترصد ضحكاتهن وتغلغل أشعتها في داخلي.. خفت.. شعرت أني أتكسر من الداخل وأن تلك الهالة الكبيرة في كبد السماء تحجب عين الشمس..

يا خفايا القلوب.. يا خفايا العقول.. يا.. يا..

دندنت قصيدة قديمة قالها أبو القاسم الشابي وهو يرقى الجبال.. خفت.. صعود الجبال ذهنيًا متعب.. آه ما ألعن الحفر.. وسوست لي اليمامية التي

أضاعت أختها.. "اكحلي عينيك.. أخرجي الكحل أكثر.. على الزاوية أبعديها.. ستكون عيناك أجمل.. انثري شعرك.. دعي الهواء يسرحه لك.. الهواء والبحر.. والرمل".. يا الله تقهقه مني الموجات.. ويقلن: "كم هي متأثرة بإعلانات التلفزيون".. وقد يوشوشن لبعضهن أني أنتظر فارسًا على صهوة جواد أشهب.. أسمع وشوشتهن.. أحاول أن أجيبهن.. أن المطي والفرسان والخيل.. لم نعد نعرفها.. ولم تعد تعرفنا.. قبل أن أفتح فمي.. كانت موجة عاتية قد أتت.. كبيرة كبيرة.. تكاد تغطي الأفق.. لم تهرب موجاتي الصغيرات جميعهن.. إنما.. بعضهن ركبها وبعضهن سحقتهن حتى الشماتة.. عندما حاولت أن أجمع أجزائي وجدتها قد تناثرت على أجزاء من الموجة الكبيرة.. كتفي بالمشرق.. رجلي بالمغرب.. وآه من لساني.. كان في قعر القعر.. وتلذذت الأسماك بأكله.. رغم أن سمكة القرش قالت: "يع" ثلاثة مرات..

فقدت الشعور بأقدامي.. بعدما فقدت دفء الرمال ونداوتها.. وعندما فرقت الموجة الكبيرة أوصالي وتلذذت الأسماك بأجزائي.. وقالت سمكة القرش ثلاث مرات "يع" من طعم لساني.. تفرقت في البحر أجزائي.. كل جزء يغني مواله الخاص.. أصبحت أرسل عبر الأقمار الصناعية، حكايات المآسي التي لا تنتهي.. وأرقد نهارًا.. لم يعد لي شأن بتلك الموجات ولم يعد لها شأن بي لم أعد أسمع أغنيات "على دلعونة وعلى دلعونة".. لم أعد أميز شاطئ البحر من قعره.. لا أدري ما الذي جرى لي مرة واحدة كل شيء تغير.. دمي، وعيوني وشعري والخاتم الشمالي.. وقهقهة الوليد في أعماقي.. لم أعد أنا..

طبقت علي كل مخلوقات البحار عندما حاولت أن ألجأ لإسفنج البحر صك أذني.. وسال على قلبي..

يا الله.. مشتتة أنا، تحكي قدماي حكاية تختلف عن حكاية يداي، وعيناي عن أذناي.. كل جزء مني يغرق وحيدًا..

أحاول أن أجمع شتات نفسي.. بحثت ثم بحثت.. لكن الجنية الساحرة صرخت من أعالي الجبال وأعماق البحار.. قالت إنها ترصد الحركات في كل مكان وأنها تراني وتشعر دواخل نفسي.. شهيقي وزفيري.. تحسب دقات قلبي وقاع عيني.. وأنها ستمزقني إربًا بعد إرب.. لم أجد شيئًا أرد عليها، أعلم أنها قوية، وأنها غادرة وأنها جبارة.. أعلم أن أبناءها يصرخون في وجهها وأن أبناءها يشتمونها، ولكني لست من بنيها ولا من بقية أهلها.. أنا كنت إنسانًا متميزًا بالتاريخ، عبقني بخوره حتى ضاع نظري.. أعرف أني ملكت التاريخ يومًا، فعرفت الساحرة كيف تسخره لنفسها..

يا الله.. مازال البحر يتقاذف أجزائي، وكل جزء يردد اسطوانة مشروخة تختلف عن الأخرى.. يا الله كيف تغيرت أجزائي بلحظة.. وكأنها زر كهربائي أفتح، وأغلق.. أبحث عن نفسي.. ضائعة في بحور الله..

البحث عن الظلام



حان وقت الذهاب التفتت الشمس وقالت لأشعتها: هيا يا أشعتي لابد أن نمضي. جرت الأشعة جدائلها.. من فوق جبهات الجبال وهامات النخيل، ومن على سطح البحر.. وأتت تركض تلتف حول أمها كان لونها أرجوانيًا جميلاً وراحت تغني أنشودة الرحيل..

تفقدت الأشعة نفسها وقالت لأمها: يا أماه.. أيتها الشعلة الأزلية، نحن جميعًا موجودات.. عدا شعاعين.. قالت الشمس: نعم.. أعرفهما.. دائمًا يتأخران، لابد أن صبيًا يلعب ولا يريدان أن يعودا قبل أن يكمل لعبته.. ولكن اذهبن وأتين بهما حالا.. إن الدنيا رمضان والناس هنا تريد أن تفطر.. وهناك تريد أن تمسك..

ذهبت الأشعة وانتشرت وعادت لأمها.. لم نجدهما.. حارت الشمس بأمرهما.. لكنها لم تجد بدًا من الرحيل دونهما..

الشعاعان فضوليان.. يريدان معرفة شكل الظلام.. لذا تكورا على نفسيهما حتى أصبح الواحد منهما على شكل رأس دبوس صغير، اختبآ تحت صخرة كبيرة على جرف البحر.. وهما يمنيان نفسهما باكتشاف الظلام.. ومعرفة شكله ولونه.. وكيف أن البحر يكون أجمل والسماء تترصع بنجوم كالماس حيث يُظهِر الظلام نورها..

هذان الشعاعان.. يحبان المعرفة، هذه المعرفة ستكلفهما غضب أمهما الشمس، ولأن لكل شيء ثمن، قررا تحمل النتيجة، يريدان أن يشاهداه، الظلام كيف سيكون شكله؟

جمعا نفسيهما والتفا، بحيث أصبح كل واحد منهما كرأس الدبوس.. ثم قررا أن يخرجا بعد أن رحلت أمهما.. وقالا سنرى الآن الليل، ولكنهما ما

أن خرجا حتى عم نورهما المكان.. وهنا تقافز الناس وتراكضوا وكبروا وهللوا، لهذا النور المنبعث من حجارة على جرف البحر.. بعضهم قالوا هذا سحر، وبعضهم قالوا هذا كوكب هبط من السماء وبعضهم قالوا بل إنه رسالة من المريخ للأرض.. والشعاعان حائران ماذا يفعلان؟؟.. هما يريدان أن يريا الليل.. لذا قررا أن يتكورا مرة أخرى كرأس الدبوس ويتدحرجا نحو البحر.. وهذا ما كان، نزلا البحر.. هناك ماجت الأسماك وهاجت، وصرخت، لم ترقد حيوانات البحر كلها، والناس على أطرافه.. هناك من يصلي، وهناك من يتلو الورد والآيات، وهناك من يتمتم بكلمات سحرية، والشعاعان يضحكان مرة وينتحبان مرات.. لذا جمعا نفسيهما مرة أخرى، وصارا كرأس دبوس وقررا أن يتطايرا حتى رأس الجبل كي يطلا منه على العالم ليريا كيف يكون الليل.. وهناك كانت فتاة جميلة وكان فتى وسيم، يتطارحان الغرام قال لها الفتى أنت شمس حياتي عندها التصق بقربهما الشعاعان فأنارا الكون، غطت البنت وجهها ونزلت مسرعة ولحقها فارسها بينما تعالت أصوات الناس، يرددون الهتافات لهذين القديسين الذين تشرق الأنوار منهما.

تألم الشعاعان وخافا كثيرا من غضب أمهما، فكرا أن يلحقا بها، لكنهما لقلة حيلتهما لم يعرفا، أي اتجاه يسيران!؟؟.. لذا كورا نفسيهما مرة أخرى، وصارا كل واحد منهما كرأس دبوس، وراحا يتدحرجان من فوق الجبل، لكنهما سقطا على قمة منزل جميل لمراب كبير، هناك فوق سطحه كان يحتفظ بهشيم ليصنع منه حشوا لأكياس ليبيعها مداينة، فاندلعت النار به..

الناس صدحوا بالحق المبين وتذكروا حكاية تاجر البندقية وبطلها "شايلوك".. وراحوا يُألفون روايات ترضي وجهات نظرهم.. وكانت ليلة

ليست كالليالي، كان الشعاعان يتجولان والناس تنبهر بهذه الأنوار التي تسطع فجأة ثم تتقلص فتكون كرأس الدبوس، يتابعونها من مكان إلى آخر، وأتت الصحف والإذاعات وأتت وكالات الأنباء، وكثرت الأقاويل ربما كذا وربما كيت!! واصل الشعراء قصائدهم، وواصل الكتاب تعبيراتهم.. إلا أن الأطفال كانوا تعبين يريدون النوم، كي يذهبوا باكرًا للمدرسة فيسمعوا كثيرًا من الأحداث..

الشعاعان لاما نفسيهما، فهما لم يجدا الظلام وما عرفا الليل، ولكنهما خربا على الناس نومهم، وطرق حياتهم.. ولا يدريان إلى أين يسيران ثم قررا أن يختبئا مجددًا، أين؟، في فروة خروف أسود حتى لا يبينا، فينام الناس، وخاصة الأطفال لكن ما أن دخلا، حتى شبت النار في الخروف المسكين، وكبر الناس وهللوا، لا شك أن صاحبه قد سرقه..

كورا نفسيهما مجددًا وانطلقا.. وجدا بيتًا صغيرًا.. هنالك جلسا فوق الجدار.. وأرسلا نفسيهما إلى داخل المنزل.. كان هنالك فتى يدرس على مصباح كيروسين ضئيل.. وأمه تجلس على سجادة تصلي.. ثم شرقت بدمعها وهللت وكبرت.. رحمة الله قد أتت.. هذا وحيدها سيقرأ جيدًا، أنار الله له الكون بعد أن أطفأته شركة الكهرباء..

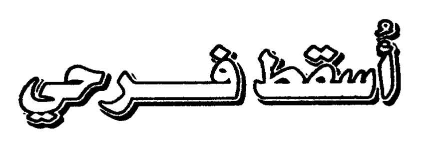
تجمع الناس حول بيتها خرجت لهم.. طلبت منهم الهدوء.. فأحمد يقرأ.. ولكن الصحافيين أصروا على الكلام.. يريدون معرفة رأيها بهذه الظاهرة، أجابتهم: "كرم الله كبير، عز على ربنا أن لا يرى أحمدُ جيدًا، وصليت كثيرًا، وتقبل الله صلاتي ودعائي".. ثم التفتت حيث عدسة التلفزيون وفردت كفيها الاثنتين وقالت وهي تضعهما أمام الكاميرا (قولوا لشركة الكهرب.. كش.. سليمة..) ولما كثر اللغط، تأثر أحمد، وكاد يطبق كتابه ويمضي لهم..

إلا أن أحد الشعاعين، ألهمه الله أن يلعب بالجمهور خارجًا، لذا خرج الشعاع.. وارتفع إلى عنان السماء وهنالك جعل يتشكل مرة أسد ومرة أرنب ومرة طيرًا.. وأصبح الناس يموجون ويكبرون ويصرخون... وانبرى أحدهم.. ليستفيد من الأمر.. وأصبح يضحك على عقول الناس، إن أصبح الشكل بقرة، فإنه سيصيب الناس خير كثير، وإن تشكل طيرًا، ستطير أحلامهم بمطر هذا العام.. وإن تشكل سمكة فلا شك أن بحرهم سيمتلئ بكل خير.. فرش المهرج منديله وكل يضع قرشًا ويحلم، ويفسر له الحلم.. نزل الشعاع على رأس المهرج، ففاح عطاب شعره.. صرخ الناس ورموا عليه ماءًا، ثم نهب الأطفال قروشه...

تعب أحمد أطبق كتابه، وهو يعجب لهذا النور الإلهي وصلى ركعتين شكرًا لله.. تعانق الشعاعان ومضيا.. والناس تراقبهما، ثم قررا أن، بعد أن يتكورا على شكل رأس دبوس، أن ينزلا في قصر كبير مظلم نزلا إلى القبو.. ومن القبو إلى قبو القبو.. وهنالك قررا أن يفردا نفسيهما و.. هب اثنان.. يتبادلان صفقه مشبوهة، وتناثرت الأوراق على الأرض.. وأراد أحد الشعاعين أن يسحبها إلا أنها اشتعلت.. صرخ الاثنان.. وهربا.. وبقيه كلمات لم تحرقها النار وألتفت قبل أن تقع بيد أحد..

لم تمر ليلة كتلك الليلة، لم يأكل الناس طعام الإفطار كما ينبغي، ولم يعرفوا كيف يتناولون السحور، ولا متى الإمساك.. إلا أن الشعاعين كانا الأتعس فهما لم يريا الليل، لسبب بسيط جدًا، أنهما يحملان النور..

١٥ / ٦ / ٢٠٠٠م


أُسقط فرحي



فرح يغشى كياني، يزغرد كل شيء بي، لا شأن لي بالأخبار لا من مات ولا من حرق، ولا بالقمة، قامت أم قعدت.. أنا إنسانة تحمل على كاهلها عناء السنين وشقاءها.

أريد أن يصير لي بيت وأن يكون هنالك صغير يرقد في أحشائي يشرب دمي تسعة أشهر، كل ليلة قبل أن أنام أناغيه أحكي له أجمل القصص.

ليس مهمًا من يكون ولا كم زوجة لديه لأكن الرابعة أو العاشرة، ليعد بي لعصر الجواري المهم أن أجد طفلاً وبيتًا وأثاثًا، ليس مهمًا أن يبنيه لي سأبنيه أنا، إنما يكون هنالك رجل، حس رجل، ورائحة رجل، وأطالب الجميع بالهدوء لأن رب البيت نائم. وأمشي على رؤوس أصابعي خوفًا من إزعاجه. رجل يمنحني شيئًا من حرية، لا أستجدي أخًا ولا أتملق زوجته كي يعطيني ورقة تتيح لي السفر أو أنحني لكل مطالبه كي أصطحب أحد أبنائه الكبار معي فأصرف عليه فقط إرضاء لأبيه كي يسمح له أو لأخيه بمرافقتي لاحقًا.

رجل يمنحني الصغير الذي كم حلمت بدفئه كلما أمسكت أبناء إخوتي وأخواتي، طفلاً لي ينتمي. وأتيه فخرًا وأنا أحمله لأطعّمه ضد السعال والشلل والكزاز لا أريد أكثر من أن أشعر أنني مستقلة، وأكون زوجة فلان مهما كان هذا الفلان.

لا أريد أن أسمع الأخبار لا أريد الراديو ولا التلفاز ولا الجرائد ما شأني بالقمة، القمة لا تمنحني طفلاً ولم تأمر بمكافحة شبح العنوسة الذي خيم عليّ حتى كاد يلفظني أنفاسي.

سأنام ملء جفوني لأحلم بالبيت والطفل وقبل هذا وذاك الزوج، ورائحة الرجل، قلت لنفسي أحدثها ترى كيف سيكون شكله ربما يشبه عمي الأصغر أو يشبه أبا جيراننا، وحلمت أكثر أنه يشبه أحد الوزراء ربما يمسك بيده عباءته. أو يرتديها سوداء شفافة تثقلها خيوطها الذهب.

أستيقظ صباحا والحبور مازال يملأ كياني. أصلي وأدعو الله أن يوجد لي طريق السعادة، على عجل أرتدي ثيابي وأذهب لعملي، خبر خطبتي يسبقني الزميلات يتهامسن لا يهمني لا أريد أن أنكد على نفسي.

يرتفع كلام الزميلات، الحرب، الأعلام المحروقة، الحجارة والأطفال، الطفل الصغير قتيلاً، البيوت المهدمة، أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، في حضن أبيه، يطيِّرن فرحي ويسلمنني للكآبة..

أعود للبيت وقد غادرني حبوري وسلسلة ذبح الأطفال تملأ كل ما حولي من بحر البقر إلى حافلات المدارس إلى جوع وموت ملايين الأطفال حتى موت الطفل محمد الدرة بحضن أبيه.

لا لم أعد أريد أطفالاً لأكن عاقرًا فهذا الزمن ضد الأطفال، زمن بلا مستقبل.

زوجة أخي تبتسم بفرح وأنا أعطيها قراري لن أتزوج، هذا الرحم عليه بالجفاف مادام لا يجد رجالا يدافعون عن الأطفال فهم حقًا لا يستحقونهم..

ألملم أفكاري وأفتح الخزانة ثم أسقطها كلها مع الأحذية..


الطوفان



الصغار – رغم كل شيء – ذهبوا لمدارسهم.. لم يبق إلا ذو الثلاثة أعوام.. لم يعد للبيت رب لكنها تحل محله.. لم تلبس السواد عليه.. تضاربت الأخبار بعضهم يقول: إنه أسير، والبعض يقول مات شهيدًا، فهو في نظرها في كلا الحالتين حي يرزق.. تسيّر البيت كأنه لم يغب أبدًا.. تفتح المذياع شيء يسليها فيما تؤدي أعمالها المنزلية، تكنس هنا وتمسح هناك، تسقي أصيص ورد وريحان.. التعب ينهكها، يرتجف بدنها جوعًا وإجهادًا، تتناول قطعة خبز وبضع حبات زيتون، تسقي طفلها حليبًا، تضمه إلى صدرها تمنحه حبًا بينما يعطيها بعض أمان، للجدار تسند ظهرها.. تطوف أحلامها وأمانيها بالأرض والبيت المهجور والمستقبل، بالبعيد القريب والأطفال ومستقبلهم، وأول شيء عشائهم الليلة، لا بأس ستطبخ لهم (مجدرة) لقد سئموها لكن لا يهم ستعرف كيف تقنعهم وكيف تجعلها أكثر لذة من الأيام الماضية، ستهدي جزءًا منها لجارتها، علّ تلك تبادلها بشيء من طبخها، المذياع يردد أغنية شعبية تتمتم معه قليلاً فالأغنية لها صدى من أيامها غير بعيدة.. فجأة يتدخل المذيع بصوت مرتعب "نبأ هام، نبأ هام" تتفتح كل مسامعها، ويدق قلبها بعنف، ربما ضربوا مدارس أبنائها فلهم سوابق ببحر البقر وبمدرسة أخرى قبل أقل من عام، الصوت ينقطع ثم يعود مرة أخرى مختلطًا بهدير الطائرات، تتداخل الكلمات الخبر غريب عجيب لا يستطيع مخها أن يستوعبه "ارتطم المحيطان الأطلسي والهادي غرقت أمريكا" يا رب الدنيا ما الذي يحدث.. أي شيء يقوله هذا المذيع وأي شيء هذا أيعقل أن الطوفان يعود مرة أخرى، أما من سفينة تنجيهم وأي جوديّ ستستوي عليه.. لا تدري أتفرح أم تحزن.. أتفرح لأن سند إسرائيل سقط أم تحزن لأن آلاف البشر قتلوا بلا سبب... تتذكر قارة أتلنتا الغارقة، أتكون أمريكا (أتلنتة) القرن الواحد والعشرين؟ كيف تغضب المحيطات؟.. أهي

كجمال الصحراء تصبر حتى تجد الفرصة مواتية؟ وكيف كان غضبها وما أسبابه؟

تأتي التحليلات من أوربا والصين واليابان كلٌّ يعطي رأيه وتقديراته لكن أقرب شيء استوعبه عقلها هو كثرة التجارب النووية داخل الأرض مما جعل هنالك فراغًا هائلا داخل الأرض هب المحيطان لملئه...

أوربا يملؤها الهلع وأقصى شمال أفريقيا تنتكس الأعلام ويعم الدنيا الحداد "حداد ويا حداد" كأنما الأرض لا تشبع حدادًا.. أوربا تتأهب لتحل محل أمريكا يبدأ صراع بين فرنسا وبريطانيا، بريطانيا تريد أن تعيد إمبراطوريتها التي لم تكن الشمس تغيب عنها وفرنسا تتاجر بحق الشعوب بالعيش بحرية وعينها على كل مستعمراتها السابقة، ولكن الصين تقطع الطريق وتدخل لإمبراطورية عالمية جديدة.. يذهب الشقر ويأتي الصفر عالم دوار كدوار تبّاع الشمس. إيه.. لكل زمن دولة ورجال.. متى يأتي دورنا؟...

تسمع طقطقة قريبة، الأطفال عادوا من مدارسهم.. تعرك عينيها تؤلمها يدها من نوم الصغير عليها.. أمريكا لم ولن تغرق لازالت فارشة ذراعيها على العالم كله..

تبدأ دورتها الجديدة مع الأطفال.. إطعام ومذاكرة، ويأتي الليل محملاً بالرعب.. قبل أن يدخل الأطفال أسرّتهم.. تزعق صفارات الإنذار تجرجرهم إلى الملجأ القريب.. الصغيرة تسأل بصوتها المرعوب: ماما الحرب ما بدها تخلص؟.. ترد عليها: أبتخلص لما يرد الجنوب...

تنتهي الغارة تجرجر الصغار برحلة العودة.. تضيء شمعة ليدخلوا مراقدهم.. فالغارة قطعت النور.. يتأرجح نور الشمعة يمينًا وشمالاً ثم ينطفي، ويبقى نور كبير يملأ رأسها تردد بتمتمة ضعيفة أهزوجة قديمة كانت تغنيها معه وقت قطاف الزيتون..

الدمام ٢١ / ٢ / ٢٠٠٠م





أحمد أشلونة



كان اصطلاحًا بيننا نردده عندما نشك في واحدة تدخل علينا فجأة، نغير موضوع حديثنا بأن تقول التي تلمحها أولا (إيه وأحمد إشلونه؟).

عشنا خلال سبعة وعشرين عامًا معًا، كنا أربع صديقات تخرجنا من معهد المعلمات الثانوي مع بعض، لا يمكن أن ننسى ذلك اليوم، رقصنا حتى تقطعت خواصرنا ألمًا، وكادت أرجلنا أن تهرب من أجسادنا.

فرحة التعيين كانت لا حدود لها، كنا نأخذ رواتب بسيطة من المعهد، لكنها لا تأتينا إلا بشق الأنفس بعد أن تدور دورة ودورتين يستفيد منها المحاسب والمدير وربما الفراشون.

تم تعيننا في يوم واحد، ولو تكلمنا على ارتباكاتنا يوم التعين، وعلى وجوه الطالبات اللواتي رأيناها تنتقد كل شيء بنا، والمدرسات القديمات، بلهجاتهن المختلفة، وكل واحدة تكاد تقول لنا يا صغيرات ابتعدن. والمقالب التي كانت تُحاك لنا، كل مقلب ينقلنا لمقلب آخر، حتى صارت لنا مناعة خاصة ضد المقالب.

تزوجنا خلال أربع سنوات، واحدة وراء الأخرى ولكل واحدة منا قصة زواج تروى، ويوم دخلة يستحق أن نتوشوش به، حيث تمتزج أشياء كثيرة، وتطفو أشياء على السطح لم نكن نعرف عنها شيئًا، لم تتعرَّ أجسادنا مرة واحدة وعند غريب نراه وفق صك شرعي، إنما تعرى مجتمع يفضح كل شيء إلا سيرة الحقيقة. أنجبنا أطفالاً متقاربين في السن، أكبر أطفالنا أحمد ابن سعاد، هذا الذي كان السؤال عن صحته كلمة سرنا.

كلما تلبدت الأجواء بعواصف الحروب والسياسة رحنا نبحث من تكون مباحث الحكومة في المدرسة.



احترنا من تكون المباحث في مدرستنا، خاصة بعدما سقط زوج نورة مدرسة العربي، ونورة لم تكن تتكلم إلا لمامًا، همها النحو والصرف، وتسبح في بحور الشعر، وكنا كلما لاحظنا ندواة في شعرها صباحًا تغامزنا، أهو البارحة كان بحر الطويل أم بحر الرجز.. فترد علينا بانتشاء ظاهر: "لا.. بحر الأحلام الوردية".

رأفنا لحالها كثيرًا وهي تبكي بين أيدينا، غربتها بعد مغادرته البيت، وحشة الدار، وتخيلها صوته في كل لحظة، والباب الساكن بلا جرس يضرب، والشاي الذي لم تعد تشربه، فهي ترى الشاي كالقبلة لابد أن يتشارك بها اثنان. وطبخة المطازيز التي لم تعد تطبخها، كانت تقول كلما أضع قرصًا بين يدي كي أجعله دائريًا ورقيقًا وألقيه في المرق كنت أغني بصوت عذب أغنية خاصة للمطازيز، كان يسمعني ويأتي للمطبخ ويشاركني الغناء، فيكون طعام ذاك اليوم أنشودة عذبة.. قررنا أن نزورها ونتسامر معها، كانت نوال أكثرنا حماسًا، لكني وليلى عدنا صباح الغد خائبتان فقد رفض زوجانا، (من يدخل النار برجليه، لا شك أن المباحث تحاصر المكان ليل نهار). هكذا قالا، اكتفينا بالجلوس معها في غرفة المعلمات، ثم بمكالمتها هاتفيًا، حتى أبدى أزواجنا تخوفًا، فقررنا السكوت..

(من هي المباحث هنا؟) سؤال جعلنا نتنقل من واحدة لأخرى، (الفرّاشة سعدى)، التي تتكلم بلهجات مختلفة مرة هي لهجة أهل المدينة ومرة مفردات من حائل، ومرات تظهر عبارات سورية وأردنية.. لا شك أنها هي، وأصبحنا نستعمل المفردة كلما دخلت علينا خاصة عندما تدخل بدون صوت، وكأنها تتعمد التصنت علينا.. فإن كنا نتكلم عن المطاوعة (الشرطة الدينية) في الأسواق وكيف ضربوا أخت زميلتنا ليلى، قلبنا الأمر لمدح

لهؤلاء المحافظين على الدين والتقاليد، ولقد شبعنا ضحكًا من سعاد التي كانت تتذمر بعدما تعرضت لموقف معهم، فقالت: "ألا والله هادينهم على خلق الله. المطوع يطالع المرأة من رأسها لقدمها، الله أكبر يقصها قص" وفجأة لمحت سعدى فأكملت: "ألا والله جزى الله المطاوعة كل خير كافينا شر هالكلاب المراهقين اللي بكل عاير". ما أن جمعت سعدى أكواب الشاي ومضت إلا وكان وجه سعاد كالليمون، فطمأنتها نوال بأنه لا يمكن أن تؤخذ بسبب هذا الكلام فهو كلام الكثيرين. حكت لنا ليلى عن حكاية زوجة القنصل الفرنسي التي ضربت بشارع الوزير، وكادت تسبب أزمة دبلوماسية مع فرنسا. والاعتذار الرسمي لها ولدولتها، رددت سعاد: "خلف الله علينا من يعتذر لنا".

كتبت فتاة في الثاني المتوسط مقالاً في جريدة الحائط تحض به زميلاتها على الطاعة لولي الأمر الأب والأخ، وعلى الغطاء السميك وعلى وعلى، وعرفنا أن مقالاً آخر لفتاة كتبت عنوانه (لعبة بيديه) مُنع لأنها كتبت أن المرأة صارت كما اللعبة، يحركونها، تغطي، لا، عليك بقيادة سيارة ونقف خلفك، لا، يتركونها، ثم يحركون من يقف ضدها، تنتهك أعراض الناس ويتناقل الإفك هنا وهناك ولا أحد يحرك ساكنًا أو يقف ليقول لا. أن يمنع مقالها شيء طبيعي ليس في تلك الفترة لكن في أغلب الفترات، لكن أن يعمل لها ما يشبه المحاكمة على رأي قالته ومنع أساسًا هذا الذي أثار حفيظتنا. وقررنا التدخل، ولكننا سرعان ما سارت أسماؤنا لتكون حديث من لا حديث له، ويتدخل أزواجنا لإخراسنا ولم نخرس، فصار في كل بيت أزمة، واضطررنا للانحناء للعاصفة التي مرت بعد أن أخذت الكثير من أعصابنا.

سعدى انتقلت من مدرستنا لمدرسة في الجنوب، وصدقت روايتها كانت أصلاً من الجنوب وتنقلت بين مناطق مختلفة تبعًا لزوجها الجندي بالحرس الوطني، وجاورت كثيرًا من الأردنيين والسوريين.. فتأثرت بهم.. فلما تقاعدت عادت لمدينتها الأصلية.

وعاد السؤال الذي يطاردنا (من هي المباحث؟) كان السادات قد حج كما تقول ليلى إلى ديرة اليهود ترفض دائما ذكر اسم الدولة كأن الرفض يمحوها من الخارطة لا يزيدها عمقًا في كبدنا العربي. وكانت أشعار أمل دنقل متوفرة سرًا وعلانية، لقد فرحنا وقتها بمجلة اليمامة وهي تنشر لأول مرة نص قصيدته (البكاء بين يدي زرقاء اليمامة). حفظناها ورحنا نرددها تمتمات حب مقهور من قصيدته (لا تصالح):

(لا تصالح

إلى أن يعود الوجود لدورته الدائرة

النجوم لمواقيتها

والطيور لأصواتها

والرمال لذراتها

والقتيل

لطفلته الناطرة)

وكم عجبنا بمقطع جميل، وبه نمنمات الحياة اليومية تلك الأشياء التي نعيشها باعتيادية لكنها تصبح ذات قيمة كبيرة عندما نفقدها.

(لا تصالح

ولو منحوك الذهب

أترى أن أفقأ عينيك

ثم أثبت جوهرتين مكانهما

هل ترى

هي أشياء لا تشترى)

بعد ذلك تعرفنا على قصيدة (أبانا الذي بالمباحث)، فقلبناها إلى أمنا التي في المباحث، وانتقلنا بعد نقل (سعدى) إلى فاطمة معلمة الدين، والتي تتعصب ضدنا وتتهمنا بالعلمانية، ونحن لا نعرف ما هي العلمانية، ولا نظن أن فاطمة نفسها تعرف وأحيانًا تصر على أننا يساريات، وكنا نقسم لها أننا نأكل باليمن ونكتب باليمين ونصافح باليمين، رغم ذلك تهددنا بالعذاب الأكبر وبالويل والثبور وعظائم الأمور، وأننا سنكون وقودًا لجهنم، كنا نقول لها إذا أصبحت سادنة للجنة لا تدخلينا لها، لكنا سنرحب بك لو كنا سادنات لها، لكن بعد ذلك خفنا خوفًا ذريعًا، وتوقعنا شر ما يتوقع، فأصبحنا لا نؤخر صلاة الظهر أبدًا بل أصبحنا نطيل الركوع والسجود عندما نحس أنها دخلت الغرفة ونبرها بالفطور معنا وخاصة الفول والفلافل اللذين تحبهما، رغم ما نشعر من ثقلها على قلوبنا.

فاطمة استقالت وقلنا: "أمنا التي في المباحث كيف تستقيل؟" على وزن القصيدة آنفة الذكر لأمل دنقل:

(أبانا الذي في المباحث

كيف تموت

وأغنية الثورة الأبدية

ليست تموت؟)

عرفنا أننا ظلمنا المعلمة فاطمة، وبدأنا نبحث عن وجه آخر، التي تختلط علينا بين نبل وبين دهاء، ورأينا أننا نصبغ كل واحدة بشعورنا نحوها، ونحاول أن نفرق بين حدسنا وبين مشاعرنا الأولى تجاه كل واحدة.

لكن عندما حضرت المعلمة البديلة توجسنا خوفًا، لقد دخلت قوية ناترة نافرة، وكأن بيدها قوانين الكون، قلنا هي قوتها من القوة التي بيدها.. وجاءت أنباء بعد أسبوع عن خروج زوج نورة، لكن تناقلت أخبار البلدة دخول الكثيرين بينهم أربعة من أزواج المدرسات، كل واحدة في مدرستنا راحت ترتعب على زوجها، بل بعضنا خططن لحياتهن عندما يواجهن مثل هذا الموقف.. كانت أكثرنا خوفا نوال ترتعب رعبًا من الآتي، وأصبحنا نطمئنها، بل تمادت ليلى بالقول لها: "لو كل من فتح فمه حبسوه لأصبحت ميزانية الدولة كلها للسجون ولن تكفي".. لكنها ترد قائلة إن زوجها دائمًا يتكلم في كل مجلس ومكان.

لما بدأت الجحافل تغادر لأفغانستان كان شيء في داخلنا يتمزق، أصبحنا بدل الكلام السري فيما بيننا نعلن غضبنا من المعلمات اللواتي كن يعمقن ذاك بالبنات، ويقدمن محاضرات دينية بدلا من حصص النشاط، مرات يعرضن صورًا بالفيديو عن جرائم الروس، وقبلها كن يقدمن أفلامًا عن جرائم الصرب في البوسنة والهرسك، كنا نقول ما بيد هؤلاء الصغار حيلة لا تغتلن طفولتهن، وقد أغمي على عدد من البنات بعد درس في تغسيل

وتكفين الموتى، مما جعلنا نواجه المديرة ونشتكي للمشرفة الإدارية، لكننا جوبهنا بانتقادات كثيرة من بينها أننا لا نريد أن نقوي قلوب البنات بالإيمان، وتلا ذلك سلسلة من التهديدات الواضحة تارة والمستترة تارة أخرى.. وأكبرها عندما علقنا على أئمة المساجد وهم يتكلمون ليل نهار ويبعثون بالشباب جحافل لأفغانستان، يؤخذون من صفوفهم وتسلب مراهقتهم ويدمر مستقبلهم، من أجل ذلك كنا سنذهب في شربة ماء كما يقال عندما تواجهنا مع معلمة الدين والتي لا تألو جهدا في تحريضها للمعلمات على إرسال أبنائهن، وتبشر الصابرات منهن على فراق الأبناء بالجنة والمغفرة. وكأنهن يقايضن أرواح أبنائهن بالجنة. وكنا نحتج كثيرًا من جعل المدرسة - وهي دار علم - قلعة للتحريض، وتبادلنا الاتهامات، وقلنا بالفم المليان فلسطين أقرب، لكن كان الرد الأول أكبر من تصورنا، سنعود لليهود بعد أن نكسب المعركة، أما الثاني فهو أن الروس أشد بغضًا وعداوة للإسلام من اليهود. وعندما قلنا إن اليهود محتلون أرضًا عربية وإسلامية، قلن لنا: ولكن الروس يحتلون أرضًا للمسلمين، ويجب أن لا نغلّب النعرة القومية على الدينية، وتدخلت كثير من المعلمات وتشاتمنا، كثيرًا، ثم طأطأنا رؤوسنا عن خوف وبلعنا ألسنتنا، حيث كانت نوال صامتة طوال الوقت، وبعد أن تفرق الجمع قالت حقيقة أنا مت خوفًا ورعبًا، ماذا سنفعل لو أخذونا؟! زعقنا عن يأس: يا أختي ليأخذونا لم يبق شيء لم يؤخذ؟ ما بعد العيال نفس؟ لكن كانت قمة المأساة يوم سافر بليل ولد حصة مدرسة العلوم ولم يخبرها، انهارت وانهرنا معها لم تكف عن البكاء، وطلبت إجازة لم يُوافق، فغابت حتى كادت تفصل لولا أن ذهبنا لها وحاولنا التخفيف عنها وطلبنا عودتها للعمل على الأقل تجد ما يشغلها عن التفكير فيه. وفعلاً عادت ولكن لم تنس لحظة واحدة، بل تكاد تسقط تعبًا وإعياءً أثناء الدرس.

(لولوة) مدرسة الدين، أصبحت مرافقة لها، تحدثها عن الأجر والثواب وقوة الصبر، تحكي لها مأساة الخنساء في أولادها الأربعة هي تحكي ونحن نبكي ساعة وأخرى نتخاصم معها، وأصبحت معاركنا معها ثم معهن أكثر مما تحتمل. فتدخلت الإدارة وأنذرتنا بالويل والثبور، لكننا وقفنا بالمرصاد لدروس (الحث على الجهاد). وصدمنا لما بدأت تنقل علينا الحصص، ثم نقلنا وتفرق شملنا، بين أرقام المدارس وأبعادها.. وبكل ما نملك من واسطة، جمع شملنا والفضل كل الفضل يعود لنوال، التي فعلت كل ما في وسعها كي نعود معًا، فهي الوحيدة التي بقيت في المدرسة، ولكن (لولوة) طارت، وكثر الهمس علينا بأننا نحن من طيرها، والله يعلم ليس لنا يد بذلك.

وكان دخول العراق للكويت، لم ننم وتعذبنا مع عذاب الكويتيين، فتحنا لهم بيوتنا وقلوبنا، كرهنا صدام أكثر مما كنا نكرهه، وكنا قبل نتخاصم مع ليلى التي تراه بطلاً قوميًا، في حربه مع إيران وكنا نرى ذلك تبديدًا لقوة إيران وقوة العرب معًا ولن يفوز أحد إلا تجار الحروب والغرب. وصل الأمر بليلى أنها كانت تأتي بنشرات الأخبار كل صباح ولم نكف عن الخصام معها، ولكنها عضت أصابع الندم بعدما دخل الكويت. ولكن مع حبنا للكويتيين لم يمنعنا ذلك من الهمس واللمز على بعض الممارسات التي تحدث منهم أو لهم مثل ذلك فتح الفنادق على مصراعيها لهم، أو إعطائهم شقق الإسكان وكنا نظن أنها لفقرائنا، وهذا ما جعلنا نغضب بصمت فالوقت لم يكن وقت كلام، لكنا انفجرنا ذات مرة بوجه إحداهن في مجلس وهي تسخر من لهجة أهل القصيم. فما كان من سعاد إلا أن صرخت، (طبعًا الديابة، أحسن يا دجاج). وهنا احتدم النقاش فأقسمت الكويتية أن لا تبقى في السعودية فغادرت لدولة مجاورة لكنها سرعان ما عادت فهناك لم يجدوا كرمًا كما هو هنا.

عن الأسلحة والجيوش القادمة من مختلف بقاع العالم، نسب ونشتم في كل مجلس، حقًا لقد كنا جميعًا نحس لم يعد شيء يهم، كل الأمور بدأت تافهة ونحن نشعر أن تاريخنا يُحرَق وُيدمَّر، وأن هارون الرشيد يُذبَح ليس على القبلة، وأن صلاح الدين يرحل بأحلامه بعيدًا.. وكما لحظة الهدوء عادت الأمور ساكنة، لكن نوال لم تكفف دمعها استمر مدرارًا أكبرنا بها ذلك.

رحنا نتبادل سرًا وعلنًا قصائد (أحمد مطر) وقلوبنا مشتتة بين الانتفاضة التي بدأ يحجبها دخان حرب الخليج الثانية فلا نرى تكسير أطراف الصغار على مرأى ومسمع من كل دول العالم وكان حاضرًا معنا مظفر النواب وقصيدته (القدس عروس عروبتكم، نردد بيننا وبين أنفسنا أشد مقاطعها بذاءة، وبين العراق، نستنزل اللعنات على صدام حسين تارة وعلى الأمريكان تارة أخرى ولا ننسى الفلوس التي تسببت بكل ما حصل.

بدأ اليأس يتسلل لأنفسنا ونسينا أمنا التي في المباحث، حتى قالت نوال ذات مرة بنبرة طويلة (أحمد وأشلونه). قفزنا ونحن ننظر لخديجة نائبة المديرة وهي تدخل، كعادتها بيدها مشط صغير تواسي به شعرها فهي دائمة الاهتمام بشكلها. فقالت: عسى ما شر أحمد مريض؟، قلتُ: لا بل به زكام خفيف.

لاحظنا بعد ذلك على نوال رفاه عيش تعيشه، وتغير لسيارتها بين فترة وأخرى، كذا لاحظنا عقود وأقراط الألماس، رغم كل ذلك لا تبدو سعيدة، ونحن نستعرض الأسماء التي تذهب ولا تعود..

مرت الأيام وقفت حرب الخليج الثانية وما وقف ضرب العراق يوميًا، يموت كل يوم كذا طفل ورجل وامرأة في العراق ويعيش صدام وتعيش كل

الصداديم، وتمضي مراكبنا بعيدًا حيث ترسو على شاطئ التقاعد، أربعتنا. تصبح الجرائد والمجلات زادنا، وكلما قرأنا خبرًا رحنا نتناقله، حتى كان يوم سعرت النيران في هواتف ثلاث منا، فتحت إحدانا الجريدة فوجدت إعلانًا من المباحث عن حقوق بعض المتقاعدين وأخذها الفضول فراحت تقرأ الأسماء وبرز لها اسم "نوال".

إعلان موت شاعرة

(الله يرضى عليك يا ابني ظهري انكسر والهَم ذوبني) كم أحب وديع الصافي وأغانيه اللبنانية المعتقة بكهوف تلك الجبال ذات القمم البيضاء، والتي تبدو طازجة كخبز فلاحة بقاعية مهما عتقت.

رغم ترديدي لأغنية (الله يرضى عليك) إلا أنني لا أحب الأبناء ذكورًا وإناثًا، الأطفال عمومًا أرى أنهم نكد هذه الحياة. لست كثيرة الإخوة لدي أخ واحد، تيتمنا قبل وفاة أبينا بأعوام عديدة، مرض جسدًا في البداية ثم بدأ يذوي، ونُقل عنا لبلد بعيد عاش بين مستشفياتها حتى جاء نبأ وفاته، حزنًا كثيرًا وخاصة أنا إذ شعرت بانقطاع الأمل برؤيته، تعودنا على فقدانه، لم تظهر مظاهر الحزن كثيرًا في البيت عدا جلسة للرجال المعزين وجلسة للنساء المعزيات ثلاثة أيام وانتهى الأمر.

كنت أتمنى وجوده، أتمنى أن أرتعب كمعظم البنات عند المغرب وأعود مسرعة للبيت خوفًا أن يأتي ويجدني لا زلت ألعب بالشارع، فيجرني قسرًا للبيت، وأن أتكلم مع صديقاتي عن أبي، عن الحلوى التي يحضرها والكتب، وأشيائه الصغيرة، فُطوره وعشاه، وقيام رمضان، ومجاملة جيراننا بأفراحهم وأحزانهم. لكني كنت أكبت ذاك وأتجه لجدي الذي كان مشغولاً جدًا عن الجميع، يحصي أمواله، ويتابع وعمي الأكبر من سدد دينه ومن بقي برقبته. ويبعث بصبيه العماني ليطرق البيوت أو المحلات تحصيلا للمبالغ المتأخرة.

كرهت أبناء عمومتي، يمكن بسبب لفظ (أبي)، أتخذ من صدر أمي ملجأ، لكن أمي كانت تضيق بي، فصدرها ينتقل مع جسدها من مكان لآخر، ما بين مطبخ وغسل أواني، وغسيل ملابس بيديها التي سرعان ما دب بهما الروماتيزم.

ما أن تعلمت أفك الخط، إلا وكان لي صدر جميل اسمه الكتاب، تعلمت كيف أبقى معه، أسهر ليلاً يحاكيني ويرسم لي صورًا وأحداثًا، يدلني على مدن، على جبال وبحيرات وأشجار، ألعب مع الشباب، وأرقص مع العشاق، يفرحني ويبهجني، ويدغدغ أشياء كثيرة بي، من غير صوت ولا آثار.

هذا الصدر كلما غرفت منه اتسع، وعشت خيالات ما مرت بخيال..

عندما تقدم ابن عمي لخطبتي لم أصدق، كرهته قبل أن أعطي فرصة للنقاش، قلت صارخة هو مثل أخي عشنا ببيت واحد أكلنا بصحن واحد، ولعبنا بالزقاق نفسه، وضُربنا للأسباب نفسها. لم يقنعني كل ما قيل ويقال، وكلما زادوا ضغوطًا زدت كرهًا.

زُفِفت مجبرة إليه، انتقلت من غرفة أمي لغرفة معه، حاول أن يكون لطيفًا بكل ما يملك من لطف، لكني كشرت كل أسناني بوجهه، لم أسمح أن ينالني إلا بشق الأنفس. وبعدها رحت أستعمل طرقًا لمنع الحمل بأية صورة، ثم هربت لغرفة أمي واعتصمت بها، لم أغادرها لغرفة زوجي أبدًا وتم الطلاق. وغفر لي ابن عمي ذلك فيما بعد وتزوج بأخرى أسعدته وملأت له البيت أطفالاً. فانتقل لبيت أكبر وأوسع، ولمّحَت أمي كثيرًا لو أنني صبرت، لكني لا أطيق الصبر أبدًا.

تقدم (عليٌ) لخطبتي، فرّق بيني وبينه أكثر من عشرين عامًا، تزوج مرتين فرحت به، نعم أريد رجلاً كبيرًا مجربًا، هذا ما كنت أقوله، لكني بعد كل السنين التي عشتها معه عرفت أنني تزوجت به الأب الذي أفتقد. وكان أول ما عرفت عنه أنه لا يستطيع الإنجاب، فقلت نعمة أنا لا أحب الأطفال، نورة ابنة عمي وأقرب البنات لي، وقفت ضد موافقتي، وقالت لأمي كلامًا كثيرًا جعلتها تغير رأيها وترفض الزواج، صممتُ وكان لي ما أردت، بيت

يحويني وأمي، بيت لنا نسير به بحرية، وخادمان، طباخ فلا تقرب أمي المطبخ، وخادم لعموم البيت الجميل، لمّحت بنات عمي أنني بعت نفسي، لا لم أبعها، أنا اشتريت ذاتي وكياني، كان لطيفًا متفهمًا، كريمًا مع أخي الذي راح يدرس في الخارج.

كان كرمه معي لا يضاهى، عرفت كل الكتب والمكتبات، عرفت النقاشات الأدبية، وعُرف اسمي كشاعرة، وعرفت أيضًا أسماء لامعة وتغلغلَت مرات أشياء لطيفة لقلبي، سرعان ما أكتمها، امتنانًا للرجل الرائع الذي أعيش معه. بقيت الطفولة لا تحرك بي ساكنًا، حتى ضغطت على صديقة لي كي أرعى طفلة مات أبواها في حادث. رحب زوجي بالفكرة وشجعني، وقال لي سيكتب ثلث ثروته لها، إن تم له ذلك. وبدأت أعد العدة لذلك وأزور الطفلة ما بين آن وآخر حتى أخذت تعتادني وتحبني، بل أصبحت تناديني ب(ماما). وحان وقت انتقالها لمنزلنا، لم أرهب شيئًا كرهبة هذا اليوم، لا أدري كيف أتصرف مع طفلة لم تبلغ الثالثة، كرهت اليوم الذي فكرت به بذلك، هذا الحِمل لا أقدر عليه. سلمتها للمربية التي أحضرتُها لها، لكنها استغربت المربية وأصبحت تبكي، لم نستطع أن نسكتها لا بالألعاب ولا بالحلوى ولا بأخذها بجولة في السيارة نمر بها على كل المحلات والشوارع والشواطئ حتى نامت من إجهاد، وعند الضحى صحت وقد بللت ملابسها، هالني الأمر، اتصلت بصاحبتي، فقالت شيء طبيعي لطفلة تنتقل لمكان غريب عنها، بضع أيام وتعتاد، ويكون الأمر سهلاً، فقط تحتاجين لبعض الصبر، لكني لا أملك الصبر، لذا أرجعتها، شعرت بفراغ وألم سرعان ما تناسيته حتى نسيت، وبقيت صورتها تطفو على السطح ما بين عام وعام، ولو قدر لها أن تكون معي لكان عمرها الآن حوالي الخامسة والعشرين ربما كانت متزوجة وأمًا لأطفال، هل ترى سأحبهم أم أكره أن

يبعثروا منزلي المرتب دومًا، أو يكسروا أشيائي الثمينة. على ذكر الأشياء الثمينة، فتلك جمعتها من بلدان العالم التي عرفتها، عرفت الهند والسند واليابان وسنغافورة، وماليزيا وعشقت عالم وجو مدينة (بيننغ)، عرفت إيطاليا وجلت في مدنها ومتاحفها، ومن أجمل بيوت الأزياء فيها ابتعت الكثير من الملابس، وسحت في فينسيا (البندقية) وعشت أجواء شكسبير وتاجر البندقية. وفي فرنسا عرفت نيس وكان وباريس، عرفت الشانزليزيه، والحي اللاتيني، ومنبرناس، وأعجبتني مدن على الحدود الفرنسية السويسرية، وكانت أجواء كالحلم تجعلني أكتب درر أشعاري.

هذا الرجل طاف بي العالم الغربي كله ألمانيا بلجيكا والنمسا وتلك البحيرات الرائعة قرب مدينة (غراس) حيث يستخرج الكريستال، لازلت كلما ذكرت النمسا أذكر روعة ستراسبورج، هي الأشياء الجميلة تحفر بالذاكرة أغنيات حب، فأحب زوجي أكثر وأمتن له. وأتعلق برقبته بسعادة لا حد لها، هذه السعادة تعود بي للطفولة، وأسأل نفسي أكره الأطفال لا زلت؟ يرد صوت مبهم لا أدري أين أجد جوابه.

هكذا انطوت سنوات حياتي. سعادة تتوالد، ورحم لا يلد. وبدأت كآبة تملؤني ما بعد الخمسين وامرأة هي أنا، ما يشبه النار تشتعل في داخلي، ثم أحس ببرودة كبيرة، يتفصد عرق مني، لم أعد أسيطر على انفعالاتي. توتر في كل جزء من جسدي. هو السن الحرج، حاولت أن أغطي الشيب بالأصباغ، والكبر بالملابس الجميلة الغالية، وشحابة الوجه وبعض الأخاديد بالزينة مساحيق عديدة تضفي رونقًا سرعان ما ينطفئ ويزداد رمادٍ أيامي. رمادًا فوق رماد، أتمنى جرس الباب يرن أو هاتف.. لا أحد كلٌ لاه في حياته، أمي التحقت بأبي، وأخي كوّن بيتًا وأسرة، بعيد هو جسدًا وروحًا. أطفاله لا يأتون إلا لمامًا، قالت لي صغرى البنات: (عمة بيتكم ما فيه أحد نلعب وإياه).



شهر بعد أشهر جفاف يؤلمني لقد جاء اليأس. كنت أظنه بعيدًا.. نعم لا زلت أكره الصغار وأمهاتهم وهم يجرجرونهم، والآباء وهم يحملون أكياس ملابس العيد.. وأكتب شعرًا، لا كالشعر فما عدت قادرة على كتابة شيء، القراءة ما عادت تستهويني، عللت ذلك بضعف بصري. بدأت أخلق صدامات مع صديقاتي، حتى تقلصت أعدادهن، وبقت اثنتان فقط، لأنهن يحببنني لوجه الله وللحب وحده، زوجي كبر كثيرًا بدأ يعاني من ضعف بالذاكرة، وأنا أرابط عنده يومًا وأملّ من ذلك أيامًا.

لا أدري أهي ذاكرتي بدأت تصاب بالعجز كعجز جسدي، أصبحت أناغي أطفالاً في أحلام اليقظة، أناديهم، على اسم أبي وعمي الكبير وكل معارفي نساء ورجال، وأقص لهم قصصًا وحكايات، بدأت أحاكي أصواتًا كثيرة، أغلق التلفاز وأسب المذيعين، وأكثرت من الحلوى، حلوى مدورة لامعة بعمود صغير من الخشب ألعقها بتلذذ، والخادم تُداري ضحكة فتستفزني وأشتمها والبلد الذي قدمت منه..

أشعر أنني أتساقط، جزءًا جزءًا، أفكر أنشر إعلانًا بالصحف يومًا ما أعلن موت شاعرة، لم تشعر يومًا بالطفولة..

رغم ذلك تعتريني صفوة ذهن فأشعر أني لم أحب شيئا كالطفولة ومن حبي للأطفال خفت عليهم، هَمّ الفراق وهَمّ المرض والفقر، وزادت الهموم همومًا فكان هَمّ الحروب وهي تسرق الدفتر والقلم، تسرق الحب والنور من أعينهم والصحة من أجسادهم.

أحاول أن أنسى أن حربًا على الأبواب وأن أطفالاً سيكونون بلا مأوى، لكن قد أنسى اسمي ولا أنسى.

٢٠٠٣/٢/٢



قصيدة
جدي الأخيرة



جدي طيَّبَ الله ثراه كان إنسانًا جميلاً بمعنى كل كلمة الجمال ومفرداتها، كان ذا خلق رائع، يملأ بيتنا بهجة وسرورًا، صوته الفجري يحفزنا للنهوض، ندفع بأغطيتنا ونقوم ركضًا، نتسابق كي نأخذ الإبريق من أمنا ونصب عليه ليغتسل، ولنا شرف قيادته للمسجد حين يغيب أبونا، وجدي راوٍ جيد للأشعار يترنم بالأشعار الشعبية صباح مساء، وما أن تحدث حادثة أمامه إلا ويذكر بالمناسبة بيت شعر أو بيتين، ومن كثرة ترداده للشعر حفظنا أغلبه، وعرفنا شعراء نجْد كلهم تقريبًا.

كان يحب "حميدان الشويعر" ويصفه بحكيم الشعراء، لكن جدتي كانت تغطي وجهها كعادتها عندما تخجل وهو يردد شعره مستعذبا، أما "الهزاني" وقصيدته المشهورة:

ليلة يجينا السيل يا زيد وافيت	موضي الجبين وسيد تلعات الأعناق

فإن جدي عندما ينطلق بالبيت الأول تجدنا وكأننا فرقة إنشاد نردد خلفه، وجدنا يستعذب حكايات "الهزاني" ويحب مجونه ولعله يحب فيه ما لم يستطعه هو، ويتراقص جدي حاملا عصاه برقصة أنيقة ثابتة الحركات وهو يتغنى بقصيدة القهوة لابن قاضي وتحديدًا عند الأبيات:

سطر كتب من حبر عينيه بالأوراق	خديه صادين ونونين من فوق
كن العرق بخدودها حمر الأرناق	ينثر على الوجنات باللون معشوق
اللي ابتسم شع وأشرق بالآفاق	نوره يفوق البدر سحر ومنطوق
بالعنق كن المسك والخد براق	شخص بصدره كما الشاخ مدقوق

لم نعرف جدي راويًا ولا حافظًا للشعر العربي الفصيح إلا اللهم قصيدة "المعري":

هذا ما جناه أبي عليّ   و ما جنيت على أحد

ويلحقها ببيت "بن لعبون":

ضحكتي يوم أنا طفل رضيع   ما سوت عبرتي عند الوداع

لكنه تألق ذاك الصباح كما لم يتألق أبدًا، أتى من المسجد جذلاً شرب قهوته وأكل من التمر ما شاء ثم حمل عصاه ووقف لف ثلاث لفات، ثم ثبت ناظريه بالأفق وكأنه يستلهم شيئًا ما، ثم انفرط عقد درر من أبيات لم نسمعها من قبل، ولم نقرأ عنها.

لم يكن يتحدث معنا، كان يصدح بشعر أبهرنا جميعًا.. أقسمت أختي الصغرى أنها ترى جناحي صقر لجدنا وأنه يفردهما.. لكنا كنا مذهولين نريدها أن تصمت كي نستمتع، صرخت أنه يطير.. وفجأة همد جدي وسقط، تلقفته جدتي، وضعت رأسه على حجرها وراحت تتلو عليه سورة "يس"، العرق يتصبب منه وهي ترفع إصبعه الشاهد وتردد الشهادة خُيِّل إلينا جميعًا أن شفاهه ترتجف بها، ثم صمت..

وكانت النهاية التي حاولنا تكذيبها، ولكن الحقيقة تصر على نفسها، وبقيت القصيدة التي لم يحفظ منها أحد شيئًا، لكنها كانت تأتي كموسيقى عذبة لرؤوسنا، تجدنا نصمت جميعًا، وكأنه يترنم الساعة بها، ثم نعوذ بالله من الشيطان الرجيم ونعود لواقعنا.. وأكثرنا ذهولاً كانتا جدتي وأختي الصغرى التي شاهدت جدي يفرد جناحين كالصقر وينطلق، جدتي كنا نظن ما يحيرها بصمت، من هي "هيلة"؟ التي ردد اسمها في القصيدة وقد وصفها بالمهرة الشهباء ودقق تفاصيلها الصغيرة ردفها وعينيها وغرة جبينها ومذاق قهوتها المبهرة بهيل كهيل نَفسها، ولكي نؤجج مشاعرها رحنا نختلق لها

القصص التي حدثنا جدي عنها وكنا نبهر كذبنا بإضفاء خيط حقيقة، نذكرها بيوم قدم تفوح منه رائحة بخور عبقة، ويوم لبس العباءة الذهبية في غير حفل زواج أو عيد، وأحيانًا عندما طلب قرص عقيلي وأخذه معه، لقد كنا نملك تفاسير كل ذلك، لكن جدتنا لم تقف عندها في وقتها.. غضبت أمنا منا وقالت: رفقًا بالعجوز.

لم نرفق، ورحنا من جانبنا نبحث من تكون "هيلة"؟ وأصدقاء جدنا إن تركهم الموت لم ينسهم الخرف، حتى عثرنا على العم "عبد المحسن"، له ذاكرة تلمع كالكريستال، ووهج بعينيه، كأنه ابن العشرين، ضحك حتى كاد يشرق بريقه وقال: آه هيلة، هيلة (مط الكلمة كأنه يخرجها من أجمل بقعة في قلبه)، كانت أجمل مخلوقات الله، لها خصر كخصر الغيد (الرهايف)، ولها عنق تفداه كل الأعناق، سميناها "هيلة"، لأنها تحب الهيل وتشرب القهوة كما نشربها، وآه من غرتها إذا طارت كالصقر، لا نكاد نرى منها شيئًا ثم تقف كالصقر رافعة هامتها للسماء، "هيلة" ليست معشوقة جدكم وحده كانت معشوقتنا كلنا قبل أن تطير من بين أيدينا كما يطير الصقر وهوت كما يهوي من الأعالي.

كنا قد أطعمناها قهوة بالهيل والزعفران كما تحب قبل السباق، وانطلقت ثم هوت، السائس قد دس لها سمًا مع الهيل بعد أن نال مبلغًا مغريًا من المنافس، وسقطت "هيلتنا"، وكدنا نسقط جزعًا عليها، وبعدها لم نعرف الخيل كانت أجمل الجميلات، آه وألف آه على "هيلة". قررنا أن ننقل ما سمعنا لجدتنا، لكننا استعذبنا مشاكستها، وكانت تستمتع معنا بتلك الروايات التي نختلقها حتى كان يوم لم تستطع معنا صبرًا، أخرجت صورة باهتة لجدنا يمسك رسن مهرة جميلة، وقالت: دوكم صورة جدكم ومعشوقته "هيلة".





عندما صرت حمارا



من عادتي أن لا أدخل الفراش إلا وقد تعطرت، وقمت بتفريش أسناني أحب أن أنام وأنا أشعر بريح طيب، كذا لا بد من أخذ وضوء كامل قبل النوم.

أنهيت مشاهدة الأخبار واستعذت بالواحد الأحد من شر ما رأيت من دمار وتدمير لديار المسلمين وذبح أطفالهم، والحقد الأعمى الذي طال كل شيء، ثم استعددت للنوم كعادتي، كنت مشوش الذهن عندما وضعت رأسي على المخدة. ولكي أطرد ما علق بذهني من الأخبار وضعت ساقي فوق جذع زوجتي، لكنها تأففتْ كعادتها، جررت ساقي، ورحت أتخيل لو كنت تزوجت سارة بنت عمتي هل كانت ستتأفف مني؟ انقلبت على يمينها وقابلني وجهها أجفلت وقلت ماذا لو أنها تقرأ أفكاري!! رددت في خاطري: "يا ساتر استر". ثم صرختْ: "أف ما هذه الريح؟".

عجبت أية ريح قبيحة وأنا لم يسبق أن أظهرت ريحًا بالفراش منذ تزوجنا قبل سبع سنين، كما أنني لا أنسى طقوس ما قبل النوم أبدًا.. نهضَت وأضاءت النور، ثم صرخت: حمار! يا إلهي! حمار ينام بجانبي!!.

خفت الله أن أخنق هذه المرأة، أبَعد هذا العمر أنا حمار.. صرخت بها، وراحتْ تبكي، وأنا أصرخ وهي تنادي: (يا أحمد) وأنا أرد: (أنا أحمد يا عديمة الأخلاق). لكنها تصرخ حتى أصيبتْ بنوبة كالصرع، حاولت أن أحملها ففشلت ورأيت يداي، كانتا يدَيْ حمار. صرخت، خرج صوتي نهيقًا تعالى، ففتح الجيران الباب كسرًا علينا، حملوها للمستشفى، أتت أمها على عجل كنت أحاول أن أكلمها لكنها تستعيذ بالله من الجن والشياطين وتقرأ المعوذات وسورة "يس"، تأخذ الأطفال وصراخهم يتعالى وتتركني بالبيت وحيدًا، كنت عطشانًا جدًا، في طريقي للمطبخ مررت على مرآة، هالني



شكلي، حمار فعلاً، صرختُ وتمرغتُ، وهنا ازدحم البيت بالناس أشكالاً وأجناسًا تقدمهم شيخ وقور، قلت في خاطري هذا سيحل المشكلة. اتجهتُ إليه لكنه أجفل وراح يتلو وردًا وأدعية وينثر عليَّ ماء وأنا أحاول أن أشرب القطرات المتساقطة علَّها تروي عطشي. حاولت أن أكلمه أن أقول له: (إنني أحمد وإنني نمت رجلاً بكامل رجولتي، لكني أصبحت بهذا الشكل لا أدري كيف؟).

أخذ يتلو ويتلو، وأنا مركز النظرات عليه، حتى رأيته يسقط هلعًا..

وإذا بالفلاشات تنطلق من كل جهة والصحفيون يقابلون الجيران، وكلٌ يفتي وهو يصور إلى جانبي، الإنسان الذي مسخه الله حمارًا. وجاء التلفزيون، رغم مصيبتي ضحكت، سأكون نجمًا كمذيعات الإم بي سي، يمكن مثل (رازان). صرخوا: انظروا إنه يضحك. وكركرت محركًا يداي كطفل فرح.

بي رغبة قوية للتبول، ولا أدري ماذا أفعل لا يمكن أن أعملها أمام كل هذا البشر. حاولت أن أدخل الحمام ردني صغر الباب وردتني الجماهير. أخيرًا لم أتمالك نفسي وفعلتها في الصالة وأنا آسف أشد الأسف. صرخ الناس وأتت الشرطة وقرروا أخذي لكراج البلدية.. كنت أتذكر أن للبلدية سابقًا حمير تجوب الشوارع وتجمع القمامة، لكن منذ زمن بعيد تسلم مقاول جمع القمامة وأصبحت هناك سيارات لها مخصصة. إذًا سيضعونني مع السيارات.

عندما دخلت كان المكان هادئًا لكنه قذر بكل معنى القذارة، والناس من أجناس مختلفة ولغات عديدة عرفت بينها السوداني والمصري والبنغالي والهندي والتايلندي، وأنا الوحيد المواطن، عفوًا، لا لم أعد مواطنًا، لست أدري ماذا يمكن أن أُسمّى الآن؟ المهم وجدت برسيمًا عافته نفسي في البداية لكني أجبرتها على أكله، كان لذيذًا، لا أدري سبب ذلك، كوني أصبحت من فصيلة الحمير أم أنه الجوع يجعل كل شيء لذيذًا. بعد ليلة أخرى قضيت صباحًا وحيدًا، ثم أحضر أحد الإخوة العرب جريدة وراح يتلو الأخبار وأنا أبعث آذاني كلها له، قرأ خبر الإنسان الذي مسخه الله حمارًا، التفت الثلاثة المتابعين لينظروا إلي، زعقت خوفًا: (لا ليس أنا). فضحكوا وقالوا: (يا الله، كأن الحمار يفهم ما نقول، لقد نهق!!).. فعرفت أنهم لا يعلمون حكايتي، ورحت أتابع ما يقرأه زميلهم، (سيجتمع غدا المجلس الفقهي للنظر في أمر هذا الإنسان الحمار ومن المحتمل أن يصدر أمر بقتله، وإذا صدر مثل هذا الأمر سيكون قتله في الساحة العامة قرب المسجد الجامع، دحرًا للجن والشياطين). يا ويلي راحت أرجلي ترجف، وتمنيت لو أتصل بجمعية الرفق بالحيوان، خاصة وأن جنس الحمير الأصيلة معرض للانقراض، وأنا كما يبدو حمار أصيل، قامتي طويلة وأذناي كبيران وممشوق الأرجل.

لم أهنأ بنوم، وحقيقة لا أعرف كيف يكون وضع الحمير أثناء النوم، لم أصدق عندما وجدت فرصة فتح الباب فجرًا لخروج السيارات، كنت قد فككت قيدي وانطلقت قبل أن تشرق الشمس فيكتشفوا غيابي.

أعرف أن هناك لا زالت بعض المزارع موجودة (بسيهات)* سأختبئ بها، قبل أن أترك الدمام كانت الشمس تسطع قليلاً، فكرت بالمرور على

* سيهات: مدينة في المنطقة الشرقية بين الدمام والقطيف.

منزل أنسابي علّي أشاهد الصغار، لكني خفت تتبع الشرطة لي، وأصبحت ألوذ ببعض الأماكن المظلمة نوعًا ما. بدأ الطريق طويلاً جدًا لسيهات، ملأت الشمس الأفق وبدأت تتحدر وأنا أسير قليلاً وأرتاح كثيرًا، فلم أعد أقوى على السير من شدة الجوع، أخيرًا وصلت "سيهات"، كان الوقت قد أصبح ظهرًا، وخرج الأطفال من المدارس، تجمع عليّ خمسة صبية وقدموا لي ماءًا وبرسيمًا وقالوا هذا حمارنا، فرحت، وجدت لي أهلاً.. أخذوني لمنزل أحدهم، ربطوني بالحديقة وعصرًا أخرجوني وأصبحوا يسيرون بي حول الشاطئ يمتطي الصغار الآخرون ظهري بريال ذهابًا وريال عودة، وهكذا عاد الصغار بحصيلة جيدة، سحبوني معهم عند محل وجبات سريعة وأكلوا وشبعوا ثم عاد بي صاحبي إلى منزلهم، وما أن عاد أبوه من عمله، يبدو أنه موظف في شركة أرامكو، إلا وضج بالشتائم على هذا الصغير وأفعاله، ولا شك أنه سرق الحمار من أحد المزارع، ولا شك أن الشرطة ستأتي وتحقق، وقبل أن تأتي الشرطة عليه إحضارها، وقبل أن تصل لي يد الأب كان الفتى قد أطلق سراحي وهمس في أذني اختبئ!! هززت رأسي ومضيت ركضًا قرب الشاطئ وكان الوقت ليلاً والظلام عم المنطقة البحرية هناك ربضت ونمت وعيوني تبكي حسرة على صغاري.

في الصباح الباكر عرف الفتى طريقي، قدم لي ماءًا وبعض البرسيم الذي لفه بجريدة المساء، فعرفت أن الشرطة جادة في طلبي.. توكلت على الله الحي القيوم وقلت لا بد أن يفرج كربتي فلم أرتكب معصية كبرى منذ ولدت.. وتذكرت منذ أن مسخت حمارًا لم أصلِّ، احترت في أمر الوضوء، لكني تذكرت التيمم ولففت جسدي مرات في الرمل وصليت الفروض السابقة كلها واقفًا متجهًا للقبلة.. ودعوت الله أن يفتح لي الأبواب الموصدة، وأن يعتقني من سجني الجسدي.. وسرت أطوي الأرض للقطيف، وهناك وجدت مزرعة جميلة مفتوحة الأبواب دخلتها وإذا بثلاثة حمير، لا كانوا

حمارتين وحمارًا، حمارة منهما حامل، دخلت وأنا أقول في خاطري كيف أتفاهم معهم وأنا لا أعرف لغتهم، قلت سأقول السلام عليكم، قلتها وهي في مخي كما كنت أتكلم عندما كنت إنسانًا فرد الثلاثة علي نهقًا: (وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته). كدت أطير فرحًا إذًا هنا يفهمونني وأفهمهم، وبدأت أعيش عيشًا جميلاً معهم، وكانت تباشير مقابلة المُزارع والعامل لي جيدة رحبوا بالضيف الجديد، وضيفوني ضيافة جيدة بل خبؤوني ثلاثة أيام بلياليها، وعندما لم يسأل عني أحد أخرجوني وسلموا لي عملاً كباقي الحمير، لكني كدت أطير رعبًا عندما حملت أقفاص الطماطم للسوق وهناك رأيت شرطيًا، وقف جنبي ودار، وسأل العامل أهذا الحمار لك أجابه العامل نعم يا سيدي؟ لماذا تسأل؟ قال: (لا هناك حمار مفقود والشرطة تبحث عنه)، قال العامل: (إنه حمارنا ولدته الحمارة الأم قبل سنة، أتذكرها يا سيدي الشرطي كانت حامل). ضحك الشرطي وقال: (أتظنني طبيبًا بيطريًا يولد الحمارات فأذكرها!!) ومضى وبلعت ريقي بينما العامل كان يفاصل مشتري الطماطم. وعاد بي وهو يروي الحادث لصاحب المزرعة، الذي قال له إن هناك رجلاً مسخه الله حمارًا، وأردف ضاحكًا أتظنه حمارنا هذا، ضحك العامل وقال، لا يا سيدي هذا حمار أصيل.

بدأت أتعايش بسلام وحرية مع الحمير الأخر، وبدأت علاقة جميلة تربطني بالحمارة غير الحامل تتوجت بالزواج في ليلة قمرية، ياه كم ضحكت وأنا أتخيل زوجتي الإنسانة لو تعلم أن لها ضرة جميلة رمادية اللون حسنة المعشر، لا تعصى زوجها، ولا تذكره بأفعال أمه وأخواته. ترى ماذا ستقول؟

تتقاطر الأيام، ينتفخ البطن للحرم المصون، لم تبعد عني، ولم تصرخ رائحتك عفنة ابعد عني، وما قذفت ما في بطنها صباحًا، هادئة طيبة مطيعة هي. يا لله أين منها تلك الإنسانة ما أبشعها، يسر بطنها لتحت لا تصرخ ولا

تتأفف، ويأتي المخاض ليلاً تئن بصمت، أحاول أن أمسح ظهرها، لا أستطيع، ثم نهقة قوية ويندفع صغيرنا خارجًا، طفلاً بريئًا جميلاً يمد أرجله نحو الأرض، يهتز يكاد يسقط ثم يستوي واقفًا، يا روعة الخالق وإبداعه، جميل هو أخذ تفاصيل أمه وامتزج بشكل جسد أبيه. جحشًا جميلاً، أطلق عليه صاحب المزرعة (الهبة)، وعندما سأله ابنه عن الاسم قال: (لأنه هبة من الله لنا هو وأبوه).

أيام جميلة مفعمة بالحب والخير والعطاء نتعاون نحن الحمير فيما بيننا، ونساعد نساءنا، ونناغي الصغار ونقدم لبعضنا الحب والعلف، ونتمتع بالخضرة والخير الوفير، لا نسمع إذاعات ولا فضائيات ولا صحف، هدوء ما خطر ببال أحد..

لا أدري بالضبط كم أمضيت لكنني فتحت عيني ذات صباح على أجهزة وأنابيب ودققت النظر فيما حولي، وجدت ممرضات وأطباء وتباشروا: (المريض رقم ثلاثون صحى). نظرتُ، عدت إنسانًا يا خيبتي، لم أستطع أن أتحرك كلي مربوط بالسرير.. حضر الطبيب مهللاً يحمد الله على سلامتي، آه قلت في خاطري، لقد عالجوني وأعادوني، ولكني لم أعد أرغب بالعودة، حضرت بعد أقل من ساعة زوجتي الإنسانة تجر أولادي، لففت وجهي عنها، وقلت حمارتي، قالت: (بسم الله عليك يا بو عيالي وأش حمارتك قل سيارتي، سيارتك تنتظرك عند الباب). لفت الدنيا بي وبدأت أفهم، أصبت بإغماء عند دخولي السرير استمر الإغماء شهرًا كاملاً.

الله.. شهر كامل وأنا أعيش عيشة الحمير، كم كانت جميلة.. وخاصة السيدة (أم الهبة). عندما كانت زوجتي تمسك يدي وتعود بي للمنزل كنت أحلم ب(أم الهبة)، لو كانت حقيقة أتراها تفتقدني الآن.

عــادل وأديبــة



عادل وأديبة صديقان قديمان، لم تزعج صداقتهما أحد، رغم الجو المتحفظ جدًا، رُبّيا في حارة واحدة، عادل يكبر أديبة بسبعة أشهر، تجمع الأسرتين الجيرة والصداقة العميقة، وحتى بعد ما فاض الخير وغيرت الناس مساكنها، اشترت الأسرتان أرضين متجاورتين وبنيا معًا منزلين جميلين، عندما كانا صغيرين كادت أم أديبة ترضع عادلاً، لكنها في آخر لحظة غيرت رأيها قائلة ربما رغب أحدهما بالآخر.

عندما وضعت أديبة الملفع على رأسها أول مرة، غضب عادل وقال إنه أخوها فكيف تتحجب عن أخيها، قالت له أمها يا ولدي لو لم نعتبرك أخًا لها ما سمحنا لك بالدخول والخروج، لكن الشرع هو الشرع. بدأ يباعد عادل بين زياراته، ثم عاود سيرته الأولى.

في الثانوية العامة حيث كان عادل يسبق أديبة سنة دراسية، كان خير معين لها، ساعدها ذلك على اجتياز السنة الدراسية بتفوق.

درسا وكبرا وتخرجا، عادل مهندس إلكترونيات وأديبة طبيبة، عادل له هواية جميلة تتعلق بالطب، فله رغبة شديدة بمتابعة الطب البديل، لذا فعلاقته بأديبة تزداد يومًا بعد يوم وأديبة تساعده بذلك عن طريق مرضاها، وأحرزت نتائج طيبة، وإن كان هناك صعوبة بتوفير كل خامات وأدوات الطب البديل.

لم يتزوج عادل ولم تتزوج أديبة، وكلما قرر عادل وراح وأديبة يفكران ويرشحان كلما تراجع، ووجد عيبًا بالمرشحة للزواج، وكلما تقدم عريس لأديبة وبحث عادل وجده لا يصلح لها، وتراجعت أديبة.

أمها تكاد تجن، البنت تكبر، والخُطّاب يتباعدون زمنًا، ولن تلحق بطفل توسده صدرها وتناغيه. كذا أم عادل كاد القهر يذبلها وهي تتمنى أن ترى زوجة عادل، وأطفاله يتقافزون هنا وهناك.

صرخت الوالدتان بنفَس واحد: إذا تزوجا بعض وريّحونا.

بهت عادل وبهتت أديبة، لم يتخيلا نفسيهما زوجين، صديقين نعم، يتبادلان الأفكار والنكت النقية، ويضحكان من المطبات، ومن السياسة والجو العام نعم، لكن زوجان يرقدان على فراش واحد. لا، ولا كبيرة جدًا.

لم ينم عادل تلك الليلة ولا نامت أديبة، هل يُعقَل أن تتحول صداقتهما إلى زواج، قلب عادل الأمر كثيرًا، ثم زَمَّ شفتيه وقال في خاطره، وأحس أن شيئًا يتنبه في داخله، قال في نفسه: لِمَ لا. ربما هو في تردده كان يبحث عن واحدة كأديبة.

الشيء نفسه فكرت به أديبة. وكان قرارًا مشتركًا.

تزوج عادل أديبة، مد عمها يده ومد عادل يده وقرأ الشيخ وتم عقد القران.

سافرا على رحلة إلى الشرق الأقصى، لم يمد عادل يده ليحضن يدها ولم تفكر أديبة أن تدع رأسها يستريح على كتفه. كانا كصديقين مسافرين. في الفندق لم تعرف كيف تغير ملابسها، ولم يعرف هو، عندما نظرا للفراش الوحيد، كادا يجزعان ثم تذكرا أنهما لم يعودا صديقين فقط إنما زوجين وصديقين.

ثلاث ليال مضت والحاجز الصغير قائم بينهما، تتوالى الأحاديث والضحكات طوال النهار، وفي زيارات الأماكن السياحية، وعندما يأتي الليل، كل واحد يدعو للآخر بصباح جميل وينامان.

لكن عادل بدأ نحو أديبة، وأديبة قفزت الحاجز مع عادل. وبعد بضع صباحات، كان عادل قد صمت ولم تعد الصداقة ولا حكاياتها، لقد طار الصديق وبقي الزوج. أديبة فكرت كثيرًا كيف تعيد الصديق وتحتفظ بالزوج، لكن تفكيرها لم يطل كثيرًا، بعد أربعة أشهر كانت مشغولة بالحدث السعيد، ولم يعد يهمها عاد ينطق عادل أم لفه صمت الأزواج للأبد.



الله يستر
على الولايا

مددت يدي مشيرة، وقلت معرّفة: زوجي، التفتُّ، كان (أسامة) قد ذاب، لا، يجدر بي أن أتكلم عن البدايات أولاً.

خططنا للزواج، على شرط أن لا يعرف أحد، شرطه الذي ظل يلاحقني به، كان مستقرًا في بيته، وكنت مستقرة في عملي، الزواج يعني لي متعة التجربة وطي سنوات عجاف بدون رائحة رجل، وصوت رجل، وبيت يدفئه رجل، كما كان يرى أنه عصمة إضافية بالحلال ولها طعم المغامرة والخشية، لأنها الزواج الثاني.

لقد عشت أيامًا جميلة، جزء من همي الزواج إلا أنه لم يكن الهم كله، كنت أسافر وأعمل، أقرأ وأكتب، ألتقي برجال فكر ونساء على حد سواء، كانت لي بعض لمحات خفيفة لم تخرج عن استلطاف تموت في مهدها.

هو كان نجمًا بمعنى الكلمة، والوصول للنجم صعب كثيرًا لكنه ليس مستحيلاً، جمعتني وإياه ندوة فكرية له في مصر، كان محاطًا بالكثيرين والكثيرات، وكانت الندوة لها صدى جماهيريًا، فكان كل من قرأ له أو سمع عنه هناك. لا أحب الانزواء لكني لا أحب فرض نفسي حضرت الندوة واستمعت للنقاش كانت لي مداخلة بسيطة، ثم بعد الانتهاء جررت نفسي حيث أنتظر سيارة أجرة، وطال انتظاري إلى أن فوجئت به يقف أمامي بسيارة، ويدعوني لتوصيلي، اعتذرت، وبي شيء من غيظ، كيف يسوّل لنفسه أنني سهلة سأركب معه، وليس لي به معرفة شخصية!. هو شخصية معروفة نعم، يتيح نوعًا من فخر نعم مرة أخرى، لكن أركب معه ويوصلني، لا، شكرته ومضى ربما لاحظ استغرابًا بعيني لموقفه.

لكن ذاك لم يثنه عندما كنا أنا وأمي في بهو الفندق أن يتقدم ويطلب الجلوس معنا، قدمته لأمي التي كانت تسمع أحاديثه في الراديو ولم تصدق

عينيها، فتدفقت أسئلتها عليه، وذكرته بأشياء سبق أن سمعتها، كان سعيدًا بها وسعيدًا بالحديث معنا، أصر أن يدفع قيمة قهوتنا، وسمحت له أمي بذلك. التفت إليَّ ليقول: آنسة ليلى، كانت مداخلتك بوقتها، دقيقة، ومختصرة. شكرته، وسلمنا..

ظننت أن الأمر انتهى عند ذاك. إلا أنه سرعان ما لاحقني صوتًا بجدة، وتعودته، وعندما تعودت الأخذ والرد معه، وهواتفه الليلية.. كان العرض الغريب الذي ثرت بداية منه، ولخمس سنوات وأنا أرفض، زواج سري!! ما العيب الذي بي كي يتزوجني سرًا، كل ما يتمناه الرجل يجده بي، أسرة وجاه وجمال وكذا أدب وسعة اطلاع، لكن السنوات تمضي، ولا أحد يتقدم وهو يواصل الإلحاح وأنا يومًا بعد يوم تفتر عزيمتي، ويلين جانبي.

وهكذا تم زواجنا، لا بد أن نحرص على صيانة البيت الأول وخاطر الزوجة الأولى ومشاعر الأبناء وخاصة البنات منهم..

كانت لقاءاتنا بالداخل لقاءات بها طابع الخوف والمغامرة، أذهب لقهوة ما ثم يدخل يسلم وكأنه رآني صدفة ثم نتأكد لا أحد يعرفنا ونقترب الكراسي.

عندما نشتاق لبعض آخذ إجازة اضطرارية من عملي لألقاه في شقتي الصغيرة البعيدة عن العيون نهارًا..

أعترف أنني كثيرًا ما ثُرت بداخلي على هذا الوضع لكني أعود وأفلسفه بلقاء العاشقين. وفي كل مرة أذهب لألتقي به، في الطريق أقول سأصرخ بوجهه وستكون هذه المرة الأخيرة، إلا أنني عندما أراه أكون عاشقة بل مراهقة.

عن سفرة نقضيها مع بعضنا تحدثنا، قال: القاهرة؟ قلت له: لا، القاهرة كأننا في جدة لا نعدم أحدًا يعرفنا أينما اتجهنا. ومثلها لبنان. اتجهت أنظارنا إلى سنغافورة، وهيأنا أمرنا لها، إلا أنه عاد مغتاظًا ليقول، حماه هناك. وقررنا أبعد نقطة، أستراليا وبالشتاء، حيث هنالك الدنيا صيف حتما ليس كصيفنا، كانت مشكلة تذاكر السفر تواجهه، فالدرجة السياحية متعبة لرحلة طويلة والأولى غالية جدًا لا تتحملها ميزانيته وهو الذي زادت مصاريفه، وقال لي إن زوجته لاحظت منه شُحًا. بلعت كلماتي كي لا أنفجر ــ هي زوجته وأنا ماذا أكون؟ ــ وقلت له: أنا سأدفع الفرق بين الدرجتين.

هكذا كان، كالعادة أتسلل بعده إلى المطار، ينتظرني عند الشرطي بعد أن يصرف من أوصله، وهكذا كنا في المطاعم والمقاهي بعد أن أتصل به بهاتفه الجوال، إن كان الوضع جيدًا رد عليّ وإلا أغلقه، فأعرف وأنتظر مكالمة منه، دائمًا أسير حذرة تحيط بي الشبهات، وتجعل أمي تتذمر وتقسم بالله لو كان أبي على قيد الحياة لكنت في لحد ومنذ أمد بعيد قبل أن يقبل هذه (الزيجة) التعسة، وتعجب لهذا الرجل ذي الوجهين، وجه للجماهير والأنوار ووجه للشوارع الخلفية، وتسب اليوم الذي أقنعتها به على الموافقة على زواج سري. وكنت أمني نفسي بطفل يتكون في داخلي يعيد لي اعتباري، قد يؤلمني أن أشعر كأنني أنتقل من جارية لأم ولد، لكن لا بأس طفل يضيء حياتي، أُناغيه جنينًا ثم كائنًا من دم ولحم بقُربي، يجعل أيامي جميلة بانتظار ما يحدث. لكن الأيام تمر والجنين الموعود لا يأتي.

في أستراليا كان إنسانًا آخر هو مجموعة من آباء وإخوة وزوج، كنت سعيدة وكأنني عصفور ينط من شجرة لأخرى، لم أدع شيئًا ينغص عليّ فرحي، كنت العاشقة الأزلية، ومجموعة نساء بوقت واحد نتناقش كأصدقاء



نرسل الشعر يعبق من حولنا، ونطبخ كزوج وزوجة ونسهر كعشاق. ونسيت أنني زوجة سرية تمامًا يتسلل لي بأوقات مسروقة، كما كان يتسلل الرجال ليلاً لمخادع الإماء منذ ألف عام.. لكني عشت العشق كما أحب.. رحت أترنم الأشعار وغصبًا عني كان بعضها من شِعر الجواري، وأصدح بأغنيات ما خطرت ببال..

القرية التي اخترناها صغيرة وجميلة تبعد عن (سدني) حوالي خمسمائة كيلو متر، حذر أكثر كي ننعم براحة بال.

آه يا (رجاء) ما الذي أتى بك لآخر المعمورة كي تضبطيني متلبسة يعانق ذراعي ذراعه ونلعق المثلجات معًا؟.. هل ضاقت بك الدنيا كي تلحقينا إلى هنا؟؟.. مددت يدي وقد جررت ذراعي منه لأقول لها مقدمة إياه: (زوجي).

وكان أن ذاب، بحثت عنه في كل الشارع طولاً وعرضًا، ركبني خوف لا أدري كنهه، غُربة وبُعد وشُبهة..

أين أذهب؟

الفندق غير موجود به، لكن ورقة مهملة على التلفاز، كتب عليها، "شرط وأخللتِ به، لا تنتظريني".. وقد ترك مائتي دولار أسترالي، وتذكرتي وجواز السفر..

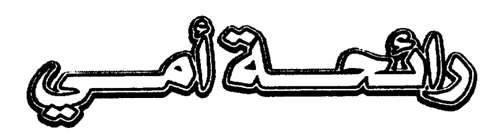
عدت أجرجر أذيال خيبتي، لم تعد أمي تشتم كما كانت، لعلها تريد أن تخفف حزني بأي صورة، فأخفَت عني ورقة الطلاق، ولم تخبرني بما يقوله عندما يسأل: هل صحيح كان تزوجني في يوم ما؟ يصمت ويمسح على شفتيه ويقول: (الله يستر على الولايا) لكني عرفت من أقرب صديقة لي

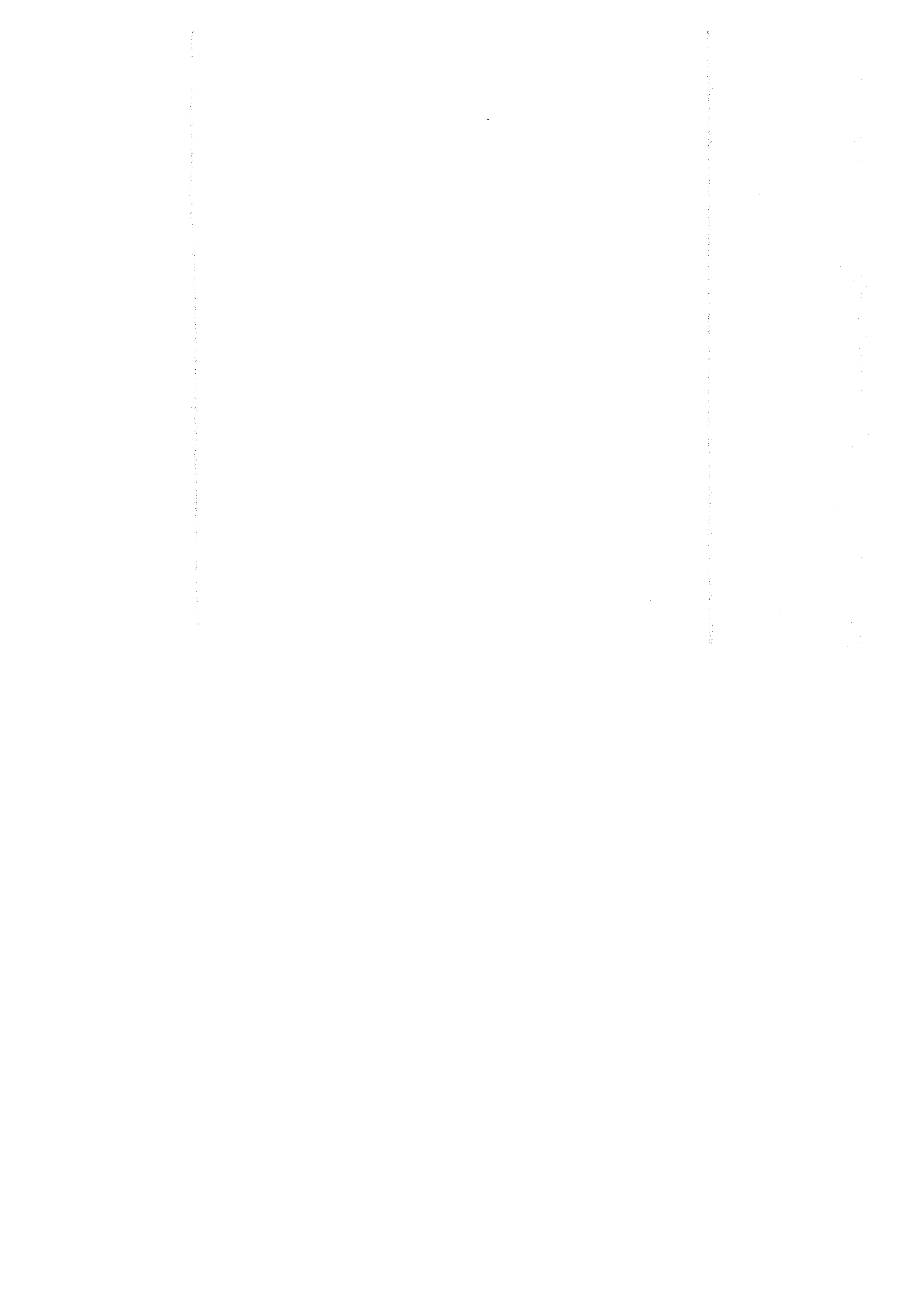
وعندما سالت أمي الحقيقة ناولتني صك الطلاق، وبلعت همي وقدمت الورقة لصديقتي كي تقرأها، فهل يمكن أن يكون هناك طلاق بلا زواج؟؟

قد أكون صدقت أمام صديقتي ولكن أمام كل الناس ماذا أفعل، لن أنشر إعلانًا بذلك، كي أُبيِّض صفحتي، ليستر الله على الولايا، كل الولايا..

نعم يستر الله على الولايا، كان حاتم ابن خالتي والذي ترمل منذ سنتين يدق الباب، يفهم الوضع ويسأل أُمًّا لأطفاله الثلاثة، الذين لم أرَ أجمل منهم، والذين وعدهم الله بأخ جديد.




رائحة أمي



لم يكن خبز أمي الأجمل رائحة فجرية، ولا حليب الصباح، ولا طبخ أمي وحده الذي كان عندي أروع الأكلات، لكن رائحتها التي تغشى أنفي في أغلب اللحظات. أنتشي بها وتأخذني لعالم بعيد ولدنيا قديمة وتفرش الدروب العتيقة. فأعود طفلة الزقاق القديم التي تنتشر أمامها ساحات حب رحبة.

لأمي رائحة مميزة، أعرفها من بين آلاف الروائح، هي طِيب بين عنبر وزعفران وعود، لا شك أنني رضعتها بالمهد، ربما كنت أضع كفي الصغير على صدرها، فأشرب الحليب ويشرب أنفي الرائحة وتتلمس يدي جلدها، وتسمع أذني دقات قلبها. فأشرب بحواسي الخمس كلها رائحة أمي.

عندما يجافيني النوم وأنا في السابعة كنت أسرق غشوتها لأضعها على وجهي فأنام، تصرخ صباحًا باحثة عنها فتجدها على سريري، تبتسم وهي تقول لم تعد صالحة للبس تحتاج كيًا، ثم تتناول ثانية من دولابها وترافقنا للمدرسة.

منذ اثنين وثلاثين عامًا فقدت أمي وفقدت رائحتها، لكني لم أفقد ذكرى تلك الرائحة، وأنفي يميز دائمًا الروائح ويرسم مخي خارطة الأماكن والأشخاص بذكرى تلك الروائح فكيف برائحة أمي.

كانت سري الجميل المتغلغل في ثنايا روحي. مرة أثناء لعبي مع ابنة جيراننا كنا نمد أرجلنا بزاوية منفرجة، فتلتقي أقدامنا ويدَيْ كل منا تعبث بالتراب، نكومه على شكل هُريمات في داخل بعضها خرز صغير ملون، ومن تفتح الكومات وتجد الخرز فهو لها، في نشوتي تلك سربت السر، وقلت إن لأمي رائحة جميلة هي بين العنبر والهيل والعود والزعفران، لكن بنت الجيران ثارت وقالت بل تلك رائحة أمها. وانقلب لعبنا إلى خصام، امتدت يدي لتفرش التراب على وجهها وطار التراب منها في وجهي

وشعري. عندها أصبت بخوف من أمي، والحمام القسري الذي سآخذه، هربت مسرعة لأنام مدعية المرض، لكن ذلك لم يشفع، فكان الحمام وكانت العقوبة، وكانت إصابة البرد بعدها.

بقيت تلك الرائحة سرًا يختمر في داخلي تمر السنون ونختصم ونصالح أقرب وأبعد، ولا تبتعد تلك الرائحة.

ذات يوم فتحت أختي الكبرى دولابها، كنت أحادثها عن قرب، انطلقت صيحة فرح مني: رائحة أمي. قالت بعجب: هنا، قلت: نعم، قالت: أنا استنشقتها يومًا في ملابسك، وملابس أختينا الأخريين. السر إذًا ما عاد سري الوحيد، كلنا لنا رائحة أمنا، وابنة الجيران لم تكن كاذبة عندما قالت رائحة الهيل والزعفران والعود هي رائحة أمها. كل أم ترضع صغارها رائحتها، تبقيها فيهم وتتناسل معهم. فكرت هل الذكور يحتفظون بروائح أمهاتهم؟ ولدي الكبير قال لي مرة إنه يميز رائحتي، لكن عندما يسافر والده لم يكن يرقد بهدوء ما لم أضع على وجهه غترة لأبيه.


حبة قمح

تتضاحك حبات القمح وهي تتدحرج على بعضها البعض، وتقوم بعضها بحركات بهلوانية، كانت الحبات تتماوج والآلات تجمعها بروافع كبيرة، تضعها على سير طويل وعريض ليأخذها نحو المطحنة.

قالت قمحة لأخرى: جميل أن نكون قطعة خبز بيد طفل جائع، نمده بنسغ الحياة، قالت قمحة أخرى: وجميل أن نصير عجينًا بيد أم تخبزنا عند مطلع الفجر، وتغني أغنية حب لصغارها ومن ثم تفوح رائحتنا حتى تملأ الأمكنة.

قالت الثالثة: يا خوفي أن نكون خبزة مدهنة بالزبد والمربى يأكلنا مراب فطورًا، أما الرابعة فقالت: أنا سأنشب بفم تاجر الأسلحة لو أصبحت كعكة فرنسية في صحنه.

حبة قمح صغيرة، سمعتهم تقوقعت حول نفسها، ولفت لفات ولفات، حتى استطاعت أن تعود فتسقط على الأرض.عندها تدحرجت وتدحرجت حتى وصلت لحقل قمح جديد.. وجدت طينًا أحمر جميلاً يناديها عشقًا، دخلت، وهو يقبلها ويعانقها، وهي تدخل أكثر وأكثر.. حتى وجدت أن عاشقًا آخر قد أثقلها، كان الماء قد مصه جسدها. التفتت يمينًا، ثم شمالاً، وجدت قمحات أخر يشبهنها، تمتلئ بطونهن بالحمل الجديد.

بدت القمحة الصغيرة سعيدة بحملها، تتحدث ليل نهار عن هذا الحمل، لذا أرسلت جذرًا أبيض صغيرًا كسن الوليد للأرض، وأرسلت للشمس ورقتين صغيرتين، قبلتا وجه الصبح وغنتا للفجر القادم وللشمس وهي تخرج من خدر الليل، وهنا أخرجت أدواتها البسيطة وراحت تعد الغذاء للساق الغض وللجذر، وكل يوم يكبر الساق وتزداد الأوراق، حتى أصبحت تعانق طفلاً بالثالثة طولاً.



جاء الربيع، خرجت الصغار عبر سنبلة جميلة خضراء، واجهت السنبلة عين الشمس، كانت الشمس حنونة عليها راحت تصبّحها بالخير وتمسيها، والسنبلة تكبر، وتكبر، وتبدأ تَصفَرُ قليلاً قليلاً حتى حاكت لون الذهب، القمحة الأم كانت سعيدة وقد تمددت جسدًا يقف الجميع عليه وتذيب نفسها في الكل. وتعطي تجاربها وأحلامها للقمحات القادمات للحياة.

كان رسام يأتي للحقل الجديد ساعة الغروب، يبهجه لون الشمس وهي تسحب أشعتها المحمرة من خجل الفراق، فيرسمها ويبتكر لها حكايات يضعها في كتيب صغير للأطفال، كان يرسم للسنابل وجوها ومراجيح وألعاب، وأغنيات حب، كانت السنابل تنتظر مقدمه، تهزها الريح شوقًا إليه، فترقص له جذلى.

قمحتنا التي كانت صغيرة، أحست بخطر آت، جذرها عميق بالأرض لا تستطيع أن تتحرك، وحتى لو استطاعت لا ترغب بذلك.

قمحتنا سمعت هديرًا صاعقًا، كانت السماء تمطر نارًا ولهبًا.

قمحتنا، نادت القمحات الصغيرات في السنابل، أن أسرِعن ادخلن عمق الأرض، اندمِجن بالطين، وانتظِرن قادمًا أحسن ويوم سعد جديد يهب، أسرعت القمحات ودخلن، دخلن إلى عمق الأرض بينما طائرات ملونة بنجوم كثيرة ترمي صواريخها وتحرق الحقل، وبعد قليل تهوي فوقه، تتفتت النجوم لنجمات متناثرة ومتكسرة، ويسيح دم، دم كثير تصده التربة فلا يدخلها.. لكن عين الشمس تحرقه.. بعد شهر عاد الرسام بلا أرجل وعلى كرسي يتحرك، حاول رسم حقل محروق وطائرة تناثرت أجزاؤها.. وقمحات مختبئات بأوجه فتيات. لم يستطع، نزلت دموعه، فكانت شموعًا تنير عتمة الأيام.

بيدبا الفيلسوف
يكتب قصة جديدة

حك بيدبا الحكيم رأسه، وخلّل بأصابعه لحيته، وسأل بصوت عربي بلكنة تختلط بين فارسية وهندية: أين ابن المقفّع؟

كنت أداوي جرح يدي الذي لم يندمل منذ فترة طويلة، حين التفتُّ إليه وقلت: يا سيدي لقد أتيت متأخرًا جدًا لقد مات ابن المقفع منذ زمن بعيد، صار رمادًا وطار نحو السماء ولم يشفع له عند الوالي أدبه الصغير ولا الكبير.

قال بهدوء كمن لم يفاجأ: إذن مات.

مط شفتيه قليلاً ثم حرك رأسه بهدوء بسيط، ذكرني بحركة بندول ساعة جدتي الحائطية، وأكمل: والقصة.. من يكتبها إذًا؟

تحفز عقلي ويدي وانبريت لهذا الصيد العظيم، قصة لبيدبا الفيلسوف، في القرن الواحد والعشرين بين يدي، يا لحظي الجميل والذي نزل من السماء كي أتلقفه قبل أن يصل ليد غيري. خاصة والكُتاب كثر..

قلت له: يا سيدي أنا امرأة أعالج الحرف منذ سنين عجاف قليلها مثمر، يغلبني كثيرًا وأغلبه قليلاً، هلا منحتني شرف خط قصتك الأخيرة.

عندما بدأ يتكلم، كان صوته متقطعًا ومبحوحًا، فشعرت بنشوفة حلقه قدمت له قهوة عربية مبهرة بالهال والزعفران، كما أقدمها عادة لأعز الضيوف، لكنه لم يستسغ طعمها، وفضل شرب ماء دافئ، اتكأ وأنشأ يقول وأنا أكتب، تمتزج أحيانًا كلماته العربية بكلمات فارسية وهندية وكان عليّ أن أستعين بقواميس لحل بعض الكلمات، فإن لم أجدها، رحت أتخذ من الموقع في الجملة تعبيرًا مناسبًا فكانت الحكاية كالتالي:

في زمن بعيد جدًا قبل أن تعمر هذه الأرض، كان هنالك أرض بعيدة جدًا، بين الشمس والقمر، ليست كهذه الأرض هي مدورة لكنها تدور بسرعة عجيبة فيتغير زمانها، بفترات قصيرة، فشتاؤها أيام وصيفها بضع ليل وأما خريفها فيكون كالحلم، والربيع يمضي كطيف مر، يومها بضع ساعات وليلها لا يشبع النائم، وهناك في تلك الأرض البعيدة الموغلة بالقدم كانت تعيش حيوانات كثيرة، فالإنسان لم يوجد عليها، ولن يوجد. فما زالت خالية منه، لم تكن الحيوانات تعيش في وئام ولا سعادة، فالطيور تخاف كثيرًا، وعندما تعدد أعداءها تغلط في حسابهم، وكذلك الزواحف والخيول والحمير، وكانت الثعالب تحاول أن تتغلب على التعاسة بصنع مقالب هنا وهناك، يستسيغ الأسد مقالبها أحيانا ويزمجر في أحايين كثيرة.

كان الثعلب يتربص بالحمام ليأكله وأحس الحمام بالثعلب فأنذر وهو يهدل، ببقبقات جميلة جماعة الحمام بالخطر المتربص بها، فكان أن طارت الحمامات بعيدا، ومر الثعلب على الدجاجات وقال في نفسه سآكل فراخها بعد الغروب، لكن الدجاجات أحست الخطر، وحمت فراخها منه..

ومثلما كان مع الثعلب كان مع الذئب، ومع النمور، وبدأت تشعر بالخطر خاصة وأن لكل حيوان لغة يتفاهم بها مع بعضه البعض، فكان أن اجتمعت الثعالب والذئاب والنمور إلى ملك الغابة، شكت له أمرها وأن الصيد يتعبها فهي لا تريد الفرائس الصعبة تريد فرائس تقول ها أنا ذا كلوني.

هز الملك الأسد رأسه المتوج بالشعر الغزير، وطلب الحكيمة البومة، التي لم تستطع أن تجاريهم خوفًا ورهبة، وأقسمت فيما بعد أن لا ترى وجوههم نهارًا جهارًا، فما كان من الأسد إلا وطلب انفضاض المجلس ليحتكم لمجلس البرلمان الأسدي. قامت الحيوانات المجتمعة وقبلت يديه

ورجليه ودعت له بطول العمر ليبقى حارسًا للحق والعدل في تلك البقعة من العالم.

اجتمع البرلمان الأسدي، وتمت مناقشة الوضع من كافة جوانبه، وقد رأى البرلمان بعد المناقشة والمداولة أن سبب المشكلة الرئيسة تكمن بعدم وجود لغة واحدة للحيوانات، تفهمها الحيوانات المفترسة، وخاصة تلك الحيوانات كالنعام والحمام والأرانب، التي تعد فرائس للحيوانات الأخرى التي من أهم حقوقها أن تجد قوتها باستمرار، وأثنى البرلمان على النعاج ومن في فصيلتها على حسن سيرتها وسلوكها.

المشكلة التي ظهرت للبرلمان الأسدي هي كيف بالإمكان توحيد لغة الحيوانات، وأعدت خطة تدرجية على مراحل متعددة تبدأ باستخدام أحدث التجهيزات، وعبر ضخ اللغة المرادة في كل القنوات، المرئية والمسموعة والمكتوبة، ومعها تحذير رسمي بعدم استعمال لغة الأسود مطلقا فالزئير للأسد وحده ولا يتعلم هذه اللغة أحد ويمنع تداولها على كل الحيوانات أيًا كانت، بما في ذلك النمور والذئاب والثعالب التي لا مانع من استعمالها لغتها الخاصة في كل مكان، ما عداها فهو ممنوع منعًا تامًا.

وجدت مشكلة ثانية، وهي بعد أن تتخلى جميع الحيوانات عن لغتها الأصلية، فأي اللغات يُسمح لها النطق بها، وبدا الأمر محيرًا حقًا في البداية، ولكن بعد دراسات مستفيضة لكافة النواحي منها: أن اختيار لغة الطيور ستكون صعبة جدًا فللطيور نغمات كثيرة متعددة، كما أن أغلبها جميل فالكناري والبلابل والعصافير صوتها جميل جدًا، ونغماتها محببة مما قد يضفي على الحيوانات عند استعمالها نوعًا من البهجة والفرح والسرور، الذي يرفض البرلمان الأسدي أن يستمتع به غيره، واعتماد نبح الكلاب، به

شيء من قوة كما أنه يرهب السادة الذئاب والثعالب، وهذا أمر يبدو في غاية الخطورة، قيل الصهيل فالخيول لطيفة، وقد تكون متعاونة في أمور كثيرة، كما أنها حيادية بين الحيوانات التي تقتات الأعشاب وبين المفترسة، لكن الأسد لم يرضه الأمر، خاف من تحسس السادة النمور خاصة وقد عرف أن للخيل جمال يفوق جمال النمور، كما أنها قد تتغلب أحيانًا على النمور عندما تضرب بأرجلها الأمامية. وأما النهيق فهو يثير الأسد شخصيًا، ولولا الحاجة الماسة للتوازن البيئي، لتم إعدام كل الحمير، وأما فحيح الأفاعي فهو يشعر الأسود والنمور بالغثيان.

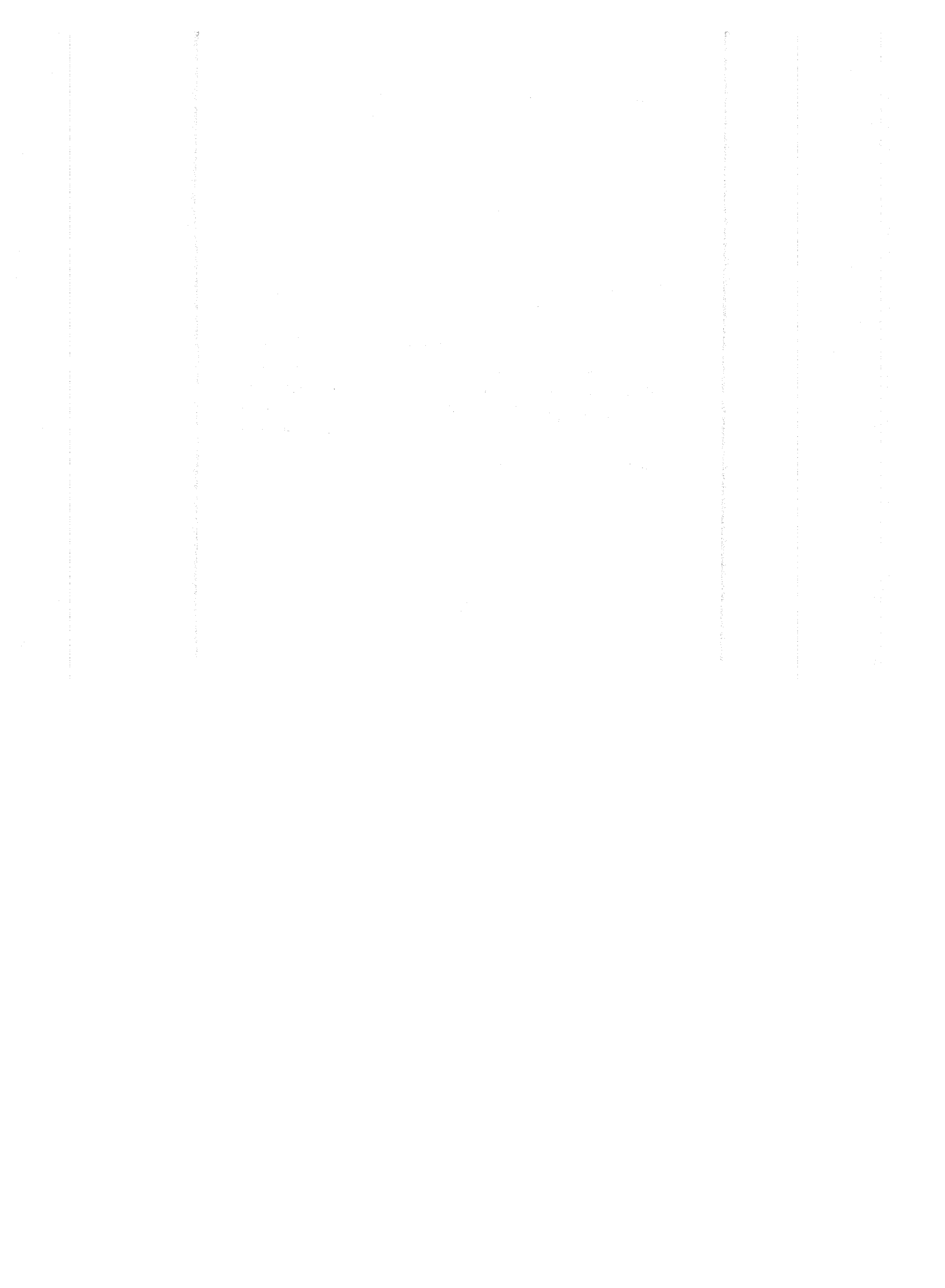
بعد مداولات عديدة ومشاورات اعتمدت لغة النعاج، لغة على جميع الحيوانات التكلم بها، ومن لا يتكلم بها فهو لا شك يحيك مؤامرات لعالم الأسود، وعلى الأسود أن تستنفر كل قواها لمحاربته، وبناءًا على ذلك يتم عرض هذا القرار على مجلس الثعالب والنمور والدببة والذئاب لإقراره، فكان ما كان من أمر إقراره، وبدأت تباشير تطبيقه، تعبت الحيوانات في كل مكان وهي تثغي كالنعاج، وأكثر من تَعِب الخيول فقد بدأ صهيلها في البداية خليطًا من ثغاء وصهيل، ولكن مع مرور الوقت تعودت ذلك، كذا تعودته الحمير وسائر الحيوانات، وصار كلام الجميع (مااااا... مااااا...، مااااا...)، وارتاحت الأسود والنمور والدببة وسائر الحيوانات المفترسة، لكن، نما لعلمها أن الحمام يهدل في عشه بطريقة سرية وقد يكون يحيك خيوط مؤامرات دنيئة، والخيل عندما يركض في البراري الفسيحة ينسى نفسه وينسى الثغاء فيصهل، كذا العنادل عندما تأمن عيون البصّاصين، وآذان المنصتين فهي تغرد، وتكثر التغريد حتى يخال السامع أن المجلس الأسدي لم يصدر أمرًا باعتماد لغة (الثغي) لذا أمرت الأسود بوضع أدوات تصنت

في كل مكان، وتحت كل شجرة وفوق كل نخلة. وداخل كل جحر، بما في ذلك بيوت الثعابين والخنافس.

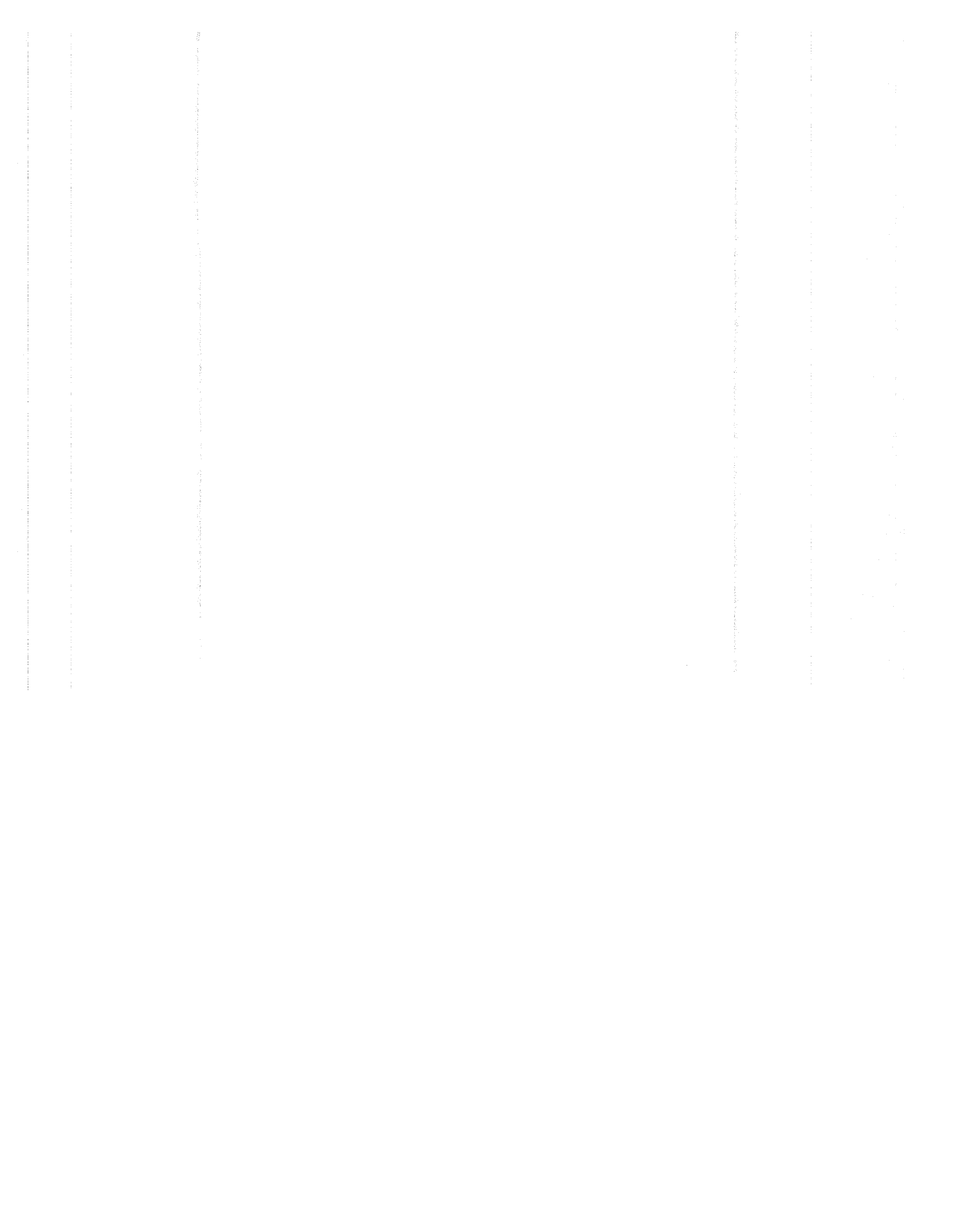
لكن واجهتها مشكلة مع هذه الصامتة التي لا تدري ماذا تفكر ولا أي المؤامرات تحيكها (النعامة)، فما كان منها إلا أن أعدت لها مدرسًا من الثعالب يعلمها لغة الإشارة، وبعد ثلاثة أيام من الدرس الذي تقدمه الثعالب للنعام، لم يوجد للنعام أثر، لكن بانت مظاهر التخمة على الثعالب، وتم عرض الأمر على مجلس النمور والدببة والذئاب، الذي أقر بالإجماع فعلة الثعالب..

هنا تثاءب بيدبا الحكيم وطأطأ رأسه، كنت أستحثه أن يكمل لي الحكاية أن يقول لي مثلاً إن الحيوانات ثارت وطالبت بلغتها القومية، وبهويتها الثقافية، وإن معارك عظمى قامت بين جميع الحيوانات من جهة وبين فريق الأسود والنمور والدببة من جهة أخرى.. العصافير عادت تغني والخيل تصهل وإنها لم تفقد لغتها لأبد الآبدين، لكنه لم يتكلم، عندما هززته مرات عديدة فتح فمه وهو يدير عينيه بنظرات مسلوبة الإرادة فقال: (ماأأأ.. ماأأأأ)، صرخت و كدت أجرجر شعري كما أفعل عندما أكون في قمة يأسي فخرج صوتي (ماأأأأ.. ماأأأ.. ماأأأأ).

السبت ٢٠٠١/١٢/٢١ الدمام



بوابة الدريهمية



أطلقت عليها بوابة، أهلنا كانوا يدعونها باسمها الهندي (دروازة الدريهمية).

كان في سالف الزمان، قرية صغيرة تنام قرب وادي السّباغ، تتحزم بسور طيني، لها بوابات خشبية، من بين هذه البوابات بوابة الدريهمية، هذه البوابة عندها تتجمع عيون ماء عذب أخذت نفس الاسم.. عندما تكثر الأمطار، تتدفق العيون فيسيح الماء حواليها، يحسوه الناس حسوًا، حيث تشكل الأرض الغرينية حاجزًا يمنع نفاذه لداخل التربة..

عبّد السقاة الطريق إلى البوابة بأرجلهم الحافية، وجلهم من النساء، وتحدث الشعراء عن هذه العيون وكأنها "أرياق البنات"[(1)].

من بين من عرف هذه العيون، وعمل بالسقاية (أثلة بنت حميد الصفار) التي سميت ب(أثلة) كي تعيش، فقد زرعت أمها مقبرة (الحسن البصري) بأطفال جاوزوا الستة عشر، أما حميد الصفار أبوها فكان يطرق النحاس ويصفره ثم يبيضه. ولقريتنا ولع لا حد له بالبحث عن أعرق العرق وأصل الأصل. ولأنهم لم يعرفوا لحميد أصلاً، فقد عرفوه بمهنته وزوجوه بجارية خلاسية أصيبت بالجدري (سنة الرحمة)[(2)]، وظنوا أنها ستموت به، ولكنه اكتفى بسرقة إحدى عينيها، ولم يصبها (الطاعون) "سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ" وقد ملأ الجدري وجهها بأخاديد كثيرة.. عافها سيدها وأبناؤه فكانت من نصيب "حميد الصفار".

---

(1) جاء ذلك في قصيدة لابن لعبون.

(2) سنة الرحمة: سنة اجتياح الطاعون منطقة الجزيرة والخليج.

عند العودة لتاريخ وصول "حميد الصفار" قريتنا تنبثق استفسارات أغلبها ليست في صالحه.. فقد صادف وصوله، وصول بواخر لميناء البصرة، محملة بعبيد من أنحاء العالم، هاج العبيد وقتها وماجوا وأطلقوا سيقانهم القوية للريح، تاركين بيوت ملاكهم والتحقوا بالسفن الراسية.. وقد قيل إن (حميّد) نزل من إحدى هذه السفن وكان محرضًا، ولم يسعفه الوقت للالتحاق بالبواخر فبقي.. وقيل إنه جاسوس للسلطان العثماني، خاصة بما يملكه من بياض بشرة وشقرة خفيفة بالشعر، ولون أشهب في العينين، البعض الآخر قال إنما هو إنسان بأس ليس إلا، والسبل تقطعت به، فكانت القرية أقرب مكان له استضافه أهل قريتنا مدة شهر، بدأ يعمل ويرتاد المسجد الشمالي فكون له معارف، ينصتون لقراءته القرآن العذبة، إذ كان عندما يقرأ يرتل بطريقة جميلة، يحمر أنفه وأذناه.. بل أخذ يقرأ أحيانًا على المرضى، ويضمد الجرحى والملدوغين، إضافة لعمله الأصلي كصفار.. وجاء بعض اللغط أنه به شيء من سحر أو روح جان.. لكن لم يقف الناس كثيرًا عند هذه الوشاشات..

باح "حميّد" برغبته كمال نصف دينه.. فكانت الجارية الخلاسية المجدورة من نصيبه، رضي بها ورضيَت به.. لكنهما كما أسلفنا زرعا مقبرة "الحسن البصري" بالأطفال الخدج..

لكن "أثلة" أتمت أشهرها التسعة وخرجت صحيحة معافاة "لأثلة" تقف فينوس تعظيمًا، وتتنازل عشتار عن عرشها.. قالب إفريقي متناسق كان جسمها، وطول رائع، ولون بشرة أبيها وشعره، أجمل الجميلات هي.. وجه صبوح لم يغلفه حجاب..

تنثر أحلامًا خضرًا عندما تقطع الطرق بقربتها، التي حملتها وهي ذات سبع، صدت عن نفسها الكلاب، وكلاب الكلاب.. واكتسبت بجانب جمالها شجاعة وإقدامًا..

لم يحلم بها شباب قريتنا، لما للأصل من قيود لا تفك.. وخشي من مثلها مقامًا، أن لا تقبل بهم.

ابن كبير القوم، كان يرقب الجسم الغض، ويفكر بحيلة يضمها بها إلى بيته، ساقية.. فاصل في ثمنها، رفض الأب: أيبيع ابنته الحرة!!.

- أمها جارية.

- لكن أمها تحررت بصك، ومن ثم بزواجها مني على يد القاضي.

- أنا لا أريدها "جارية" أريدها أجيرة أدفع لها ثلاثة (مجيديات)[1].

- ولما تدفع هذا المبلغ الكبير!!.

أسقط بيد كبير القوم، وبلع لسانه وبدأ يرسل كلابًا إثر كلاب لمطاردتها، فلما استعصت أرسل ذئابًا، فمسكها أبوها في المنزل.. أمها أخذت تولول في كل مكان: (يريدها على سنة الله ورسوله لا نقول لا، لكن أمة وقد حررها الله، لا وألف لا).

سمعة ابن كبير الحي صارت ك (بيز)[2] الموقد وخشي والده أنه لم يعد أهلاً لولايته بعد وفاته، حاول أن يجبر ما كسر الابن، قام بترميم المسجد الشمالي والجنوبي، وبر الفقراء، وأطعم أفواه الشعراء، فتغنوا بأمجاده ليلاً

---

(١) المجيدي: عملة عثمانية.
(٢) البيز هو قطعة القماش التي تحمل بها الأشياء الساخنة

ورددوا سامريات في منتصف الشهر. إلا أن شعرًا آخر تسلل في غفلة فحفظته بسرعة الصدور، راح يشمت بابن كبير القوم.

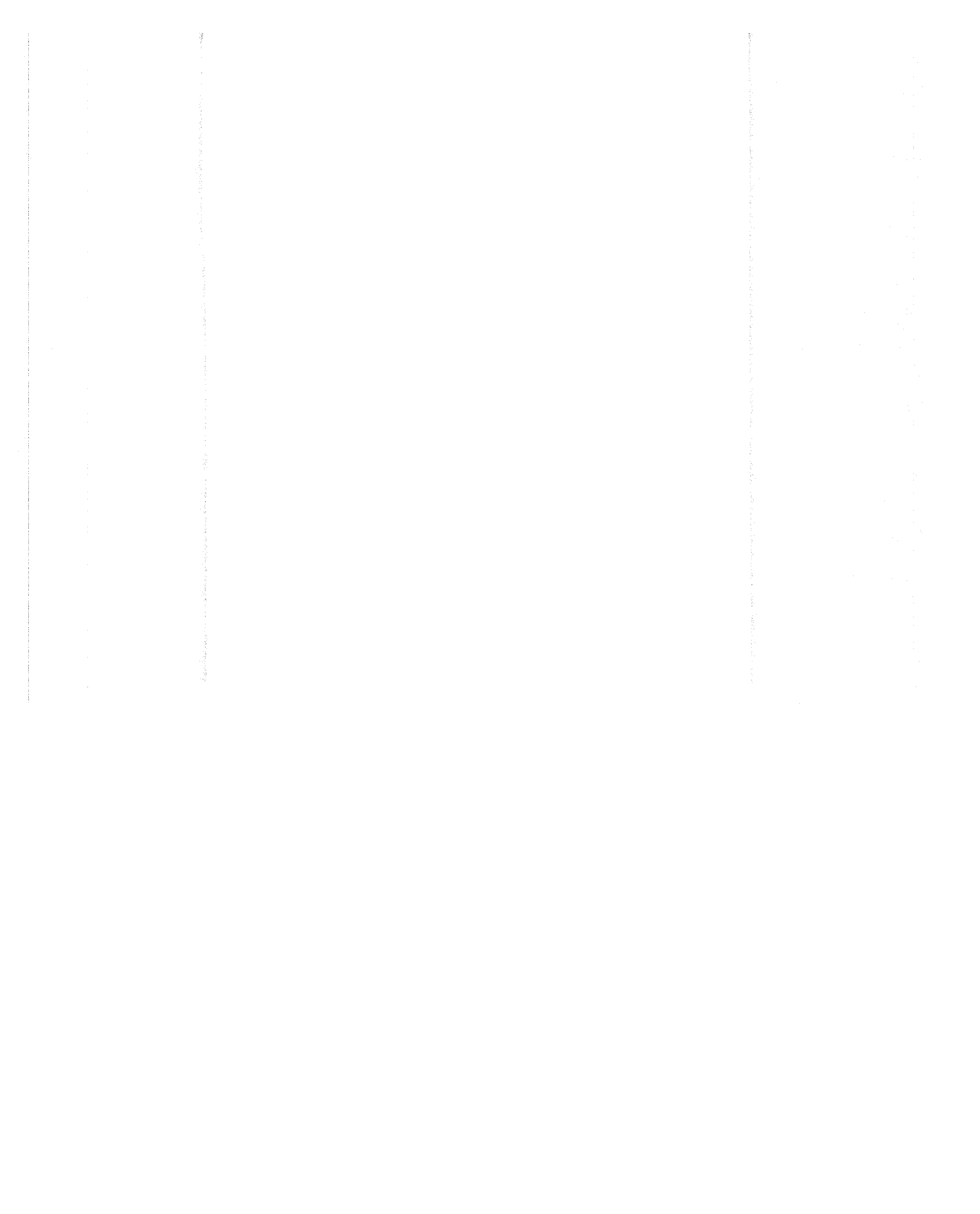
(أثلة) كالأثل تضرب بجذورها الأرض وتصمد، كثر كلام النسوة عن تورد خديها وزهاء جسمها، التهب ابن الكبير، فأصبح يجاهر بعداء هذا الأبرص[1]، الذي لا يعرف له أصل من فصل.. ثم يصدر أمرًا: على الدخيل الرحيل. وتأتي الأنباء له أن حميد الصفار سيرحل فأرض الله واسعة. سيحمل زوجته وابنته ويرحل. يصدر أمرًا: الجارية تبقى، يسترجعها صاحبها، يرفض صاحبها: (أعتقتها لوجه الله، ولن آخذها، ترحل مع زوجها وابنتها)، بل البنت للأرض تبقى هنا.. في عتم الليل يمشي حميد الصفار أمامه سوداوتين يعبرون بوابة الدريهمية.. يرتشفون الماء القراح، يغتسلون، وجوههم والأجساد.. قبيل انبثاق الفجر تشق رصاصات سكون القرية تسقط أثلة بين أمها وأبيها تغادر ثلاث أرواح الأجساد.. تتلون تربة الدريهمية بلون أحمر قان، ثم تبدأ غابات الأثل تنبثق في كل مكان فتصبح مكشاتًا[2].

لا يشك أحد أن حوية[3] لحقت ابن كبير القوم، إذ أصابه عمى ثم شلل رعاشي.. ومات بعد أن سقط في عين من عيون الدريهمية، ومن يومها لم يعد أحد يرتوي من تلك العيون، إذ صار لها طعم القيح، وفرخت بها ديدان لا حصر لها، فاضطر الأهالي لردمها.. وتطير يمامات ثلاث نحو مشرق الشمس..

---

(١) الأبرص: من مرض البرص وتطلق على شديدي البياض.
(٢) مكشاتًا: مكانًا للرحلات.
(٣) حوية: عقوبة إلهية.

البرحية لا بكت



فردة تمر على قارعة الطريق جالسة، ترقب المارين، حمال يجر عربة، طفل يصرخ خلف أمه، بائع متجول ينادي بأنغام على بضاعته. وشحاذ يلوك خبزًا وبيده صحن ثريد بايت. جلس شيخ غير بعيد عنها، يتمتم بكلمات لا تسمعها جيدًا، ينبش بعصاه التراب، ويمسح بين آن وآخر عينيه المغمضتين من جدري قديم، عطفت فردة التمر عليه، تدحرجت حتى مست قدمه الحافية، تحسست أصابعه حتى وجدتها، نفخ عليها ومسحها بطرف ثوبه وألقمها فمه، رمى النواة، وجدت النواة نفسها حرة، لا حاجب يمنعها عن رؤية الأشياء، راحت تجول في الأزقة المتربة، وتتدحرج فرحة من مكان لآخر، حتى وصلت أرضًا جميلة فارغة، تحسست طينها، عشقته، قبلته، لفت رأسها بالطين الأحمر العذب، فانتشت وراحت تدخل قليلاً، قليلاً، وتتنفس الطين برائحة الحب والعشق، اتحدت معه وانتفخت فولدت ورقتين خضراوين شقتا وجه التربة وانبثقتا انبثاق العطاء، وللعشق أرسلت جذرًا حفر بالأرض وراح يعمق ويعمق، راحت الورقتان تمصان رحيق الشمس صباحًا وتطبخان به الطعام للساق الذي يحمل طعم الأرض لسطح الأوراق ويكبر الساق ويطول وتكثر الأغصان، تواجه الشمس والهواء، وكل غصن يرسم على سعفاته حكايات المارين المستظلين من هجير أو طالبين لراحة.. وكتبت فوقه آلاف القصص قصار وطوال، وموسم بعد موسم راحت النخلة الجديدة ذات الطول الوسط والظل الغزير تكبر وتكبر، حتى انبثق في شباط مكامن حملها، فتفتح عن عناقيد لؤلؤ منضود ما كادت تكمل تفتحًا حتى هبت رياح محملة باللقاح فقبل ذاك اللؤلؤ، تمازجا فكان موسم الجمال، لعروس زفت لعالم النخيل. كانت النخلة وحيدة في المكان الفسيح، جاء رطبها باردًا لذيذ الطعم كأنه هجن من آلاف النخلات. وراح الناس يتذوقونه، وسموها النخلة البرحية نسبة للأرض البراح التي سكنتها ونبتت بها.

تمرها ذاب حلاوة بفم الصغار، واستطعمه كثيرًا الكبار، وراح الناس يسألونها ولادات كثيرة، كثرت فسائلها، وفي كل المواسم يزداد عطاؤها، النساء لا تصنع من تمرها العصيد لأنه أكبر وأطعم من أن يخلط لكن دبسها الغزير يخلط بالزبد صباحًا ليكون إفطارًا شهيًا للرجال قبل العمل، يمنحهم دفئًا في الشتاء القارس.

البرحية ولدت آلاف النخيل، وانتشرت عبر العالم، ذاع صيتها، وكثرت مواطنها، لكن اسمها يذكر الناس بموطنها الأصلي. حملتها سفن غريبة لديار بعيدة.

هناك تكاثرت وأسست هيئات للعناية بها. عُلِّب تمرها وراح يطوف العالم، وجدته سيدة في السوق الغربي، نظرت إليه تذكرت بساتين النخيل التي أحرقتها القنابل القادمة من مغرب الشمس، اشترت علبة وراحت تضمها، وتقبلها وتحكي لها عن أيام مضت، لا تدري تلك السيدة هل خيل لها أم أن الأمر حقيقة سمعت صوت بكاء يصدر عن العلبة، وساح دبس غطى الطاولة الموضوعة عليها، عندما وضعت السيدة نقطة منه في فمها وجدته مُرًا..

ولد اسمه أحمد

ولد اسمه أحمد، كان يحب الطيران منذ صغره، منذ كان ينام فوق سطح منزلهم صغيرًا، يصعد للغيمات، يدلي قدميه من فوقها وتطير به، ثم يحلم أن كل شيء يطير، الخراف والنعام والجمال والخيل، وخاصة الخيل حيث والده متيم بها، ولديه إسطبل صغير. أحيانًا يقف أمام شجيرات اللوز يسألها هل ممكن أن تطير؟ ومن هسهسة أوراقها يعرف الرد، إنها ثابتة بالأرض كثبات الجبال حول المدينة، فلا تستطيع أن تطير، لكن كل شيء يتحرك ممكن أن يطير.

وكانت أمه تصنع له بداية طائرة ورقية بذيل ذي ألوان متعددة جميلة، وعندما كبر قليلاً أصبح هو يصنعها ويتفنن في أشكالها، ويُجري مسابقات كثيرة مع أصحابه، يقفز قلبه الصغير معها وهي تحلق حتى تكاد تلامس الغيوم.

كان أحمد يتخيل أن للخيل أجنحة تطير به لعوالم بعيدة أبعد من عسير وأبعد من البحر في جدة والدمام والخُبر، كل ليلة قبيل النوم، يسرجها بخياله ويمضي بها، وهي تمر به على بلدان العالم كالتي يراها بالتلفزيون، مدن ملونة، ومدن ملاهي جميلة وحلوى، ولعب كرة وسباحة وكل ما يتمنى، طعام لم يمر بخاطر أحد ولُعب لم تُصنع لغيره.

أحمد دخل المدرسة الابتدائية، كانت أمه قد خاطت له حقيبة جميلة من قماش كتان ثقيل وبجانبيها خشبتين جميلتين كمقبضين كانت قد زخرفتهما بنفسها تمامًا كما كانت تزخرف جدران منزلهم الجديد. وضعت بداخلها بصورة مخفية تعويذة من شر كل حاسد إذا حسد.

أحمد الولد الذكي، والولد الوحيد بعد أربع بنات أنهى مرحلته المتوسطة، يلتهم العلم التهامًا، فحفظ القرآن الكريم، وعندما يتلو الآيات الكريمات



يخرجها من أعماق قلبه، وأحمد يتابع المسلسلات الأجنبية بالتلفاز ومنها أصبح يتكلم إنجليزي بصورة مقبولة.

والطيران يحلق بأحمد لأجواء بعيدة، أحوال أبيه بدأت تتردى والخيل ما عاد له مكان، وحل الوانيت الأبيض محل ذاك الحصان الأسود ذا الشعر اللامع. لم يعد أحمد يتخيل أن (البيك آب) يطير لأنه يشاهد الطائرات تعبر الأجواء ذاهبة راجعة.

كبر أحمد وأنهى دراسته الثانوية بمعدل جيد جدًا، حمل أوراقه وحلمه ومضى يبحث عن نصيب له في كلية الطيران العسكرية ولم يفلح، ذهب والده لكل الوجهاء والوسطاء ولم يفلح.

الخطوط السعودية طرق بابها مرات ومرات والباب مغلق بالضبة والمفتاح. وأحمد يتغلغل حب الطيران في أردانه ويعشش في كل كيانه.

لم يعد يأكل كما ينبغي أصبح هزيلاً مهمومًا، لم يتحمل أبوه رؤيته مهموما ولم تتحمل أمه، باعا المنزل القديم وقلادة أمه ودبرا أمر رحيله لأمريكا ليدرس الطيران.

يكاد أحمد يتحسس كل جزء بالطائرة، لا يكاد يستقر في كرسيه، تطير الفرحة من عينيه ويسبقه فضوله.

ولاية (لوس أنجلس) تلك التي سمع عنها كثيرًا، قاب قوسين أو أدنى منه، ومدينة صغيرة جميلة تدعى (أورنج) العائلة الأمريكية وابنتهم الشقراء الجميلة الزرقاء العينين، كلبهم الذي خاف منه بداية، ثم صادقه كطريق لقلوبهم، تمر الأيام وهو يزداد حبًا لهم ويزدادون تعلقًا به. ويصبحون أهلاً له بغربته الفرق بينهم وبين أهله، أن أهله هناك يدفعون ثمن إقامته هنا.



تنهي البنت دراستها الثانوية وتغادر لنيويورك، ويبدأ جزءًا من طقوسه أن يزورها ما بين وقت وآخر، هناك يتعرف على صديقتها (ليلي). ويكون قد ترك الأسرة لمكان آخر في (فلوريدا).

الدراسة الجد قد بدأت وهو يطير جسدًا كما طار روحًا، أهله يطمئنونه لكن يعلم الله كيف يدبرون كل مرة مصروفات الجامعة، فمرة باعت أخته الصغرى مصاغها ومرات استدان أبوه، ومرة رهنوا بيتهم الذي يقيمون به، ولما أحس أن الموارد بدأت تقل فكر بعمل بسيط، غسل أوان في مطعم، أو توصيل طلبات للمنازل، وأحيانًا يجالس الصغار.

لكن الأيام مضت والسنوات انتهت وسيعود للوطن قريبًا، يلملم أشياءه، ويبتاع هدايا بسيطة لأمه وأخواته، لا ينسى بنت العائلة الطيبة التي عرفها أول وصوله أمريكا وبالطبع صديقتها، ويهفو قلبه للصديقة، سيمضيان ليلة جميلة في نيويورك معًا، ليلة على رأي أم كلثوم بألف ليلة وليلة، (ليلي) الجميلة الناعمة العاشقة المعشوقة، سيشتري لها هدية جميلة تذكرها به أبد الدهر، (عزة) زوجة اختارتها أمه، لكن (ليلي) حبيبة اختارها قلبه، يبتاع تذكرة فلوريدا – نيويورك على متن خطوط داخلية، ثم بعد ليلة تذكرة أخرى نيويورك – جتوك (لندن) – جدة. كما يبتاع عقدًا جميلاً لليلي عبارة عن سلسال ينتهي بقلب صغير يفتح عن حرف(L) مرصع بالياقوت الأحمر، ويكتب ورقة صغيرة يطويها جنبه قبل أن يغلفه البائع بحرف(A).

لم يكلم ذويه ولا أمه بالذات، يريدها مفاجأة جميلة عندما يجدونه أمام البيت، والشهادة في يده، وهو يختال بجسمه الوسيم أمام أعين بنات الجيران لا شك أن (عزة) ستتيه غرورًا. والأمل معقود بوظيفة جميلة بالخطوط التي رفضته طالبًا لتتبناه طيارًا، وبدأ مخه يجَدوِل لأيامه القادمة، أسبوع عند أهله ثم لابد من بداية الرحلة نحو العمل.



استعاذ بالله من الشيطان الرجيم وهو يصعد الطائرة كأن شيئا ما ينغز قلبه، كأنما يقول له: الطائرة ستقع، وراح يتمتم آيات قرآنية ويلوم نفسه على ما أسلف من معاصي، لم يكن ينتظم بالصلاة، ورمضانان لم يصم أقسم أن يتوب لله توبة نصوحة، وأن يقضي كل ما فاته من صيام وصلوات، و(ليلي) والحرام يا أحمد؟ راح يستغفر عن خطاياه وذنوبه، واللحية التي لم يربها إلا قبل كم يوم فقط، رغم علمه أن (ليلي) لا تحبها بل تشمئز منها، لكنه كان خجلاً أن يدخل على أبيه حليقًا.

حركة غير عادية بالطائرة ثم صوت بلهجة أمريكية صميمة تدعوهم للخلود للهدوء وتنبئهم أنهم في حالة اختطاف. يرتجف قلب أحمد ويقرأ كل المعوذات وقصار السور وآية الكرسي، يمر أحد الخاطفين من أمامه، حليق الرأس غير بضع شعيرات بالمقدمة قد صبغها بالصفار القريب من البرتقالي. يلعق المثلجات يتذكر الجندي السابق بحرب الخليج الذي دمر أوكلاهوما، يكاد يكون أخاه التوأم. أحمد يتجمد بمكانه، تسير الطائرة بسرعة كبيرة، كبيرة جدًا قبل أن يسمع الدوي الهائل كان قد قال ثلاث مرات (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله) وسمع الدوي وتقطع أحمد شظايا.

أحمد لم يكن اسمه (جاكوب) ولم يكن اسمه (وليام)، لذلك أحمد لم يدافع أحد عن اسمه عندما ظهر أنه القاتل وأنه المختطف، وأم أحمد لا زالت تنتظره عند الباب، وتكذّب الروايات كذلك أبوه وذووه و(عزة)، والعائلة الأمريكية غير المصدقة بما تورده وكالات الأخبار فأحمد حنين، لطيف المعشر حتى مع الكلاب، وحدها (ليلي) التي وقفت أمام عدسات التلفزة لتقول كم كانت مخدوعة بمظهره..

الدمام ١٤/١١/٢٠٠١



تشرب المطر



اجتمعت عشر فتيات، أعمارهن أعمار الورد.. وأحلام الدنيا تملأ أرواحهن كانت أحاديثهن جميلة، متناثرة.. تتقافز الضحكات من أفواههن.. وتكثر الوشوشات الجانبية.. يطل عليهن القمر حيث يجتمعن فوق سطح المنزل الكبير، تحيط بهن منازلهن فهن بنات عمومة وأخوال.. يطول الحديث ويتشعب.. يسلين أرواحهن باللعب، فالإجازة الصيفية طويلة مملة.. ويبدأ الحديث حميمًا.. مَنْ تقدم لمَنْ؟!..

الهمهمات تبقى حبيسة الحناجر، حتى تأخذ إحداهن زمام الأمر، وتدعوهن لصنع (قريص لأحد).. وهو عبارة عن قرص خبز تشارك جميعهن في صنعه، وتؤخذ مكوناته من بيوت مختلفة، تتقافز البنات كالضباء.. من سطح لسطح ويتجمع الماء، والملح، والطحين، والخميرة.. يعجِنّه كل واحدة تضع أملاً ما، بشخص ما، هو ملاك من نوع خاص.. طويل، وسيم، جميل، متعلم، أنيق، كل واحدة ترسم مواصفاتها لفارسها، وتتمنى..

يخبزنه قرصًا أحمر فاحت رائحته ففتحت صاحبة البيت عينها.. عندما رأتهن يتقاسمنه، ابتسمت وانقلبت على جنبها الأيمن ونامت..

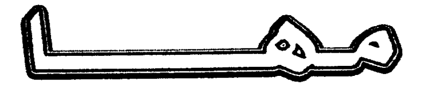
تقاسمت البنات القرص.. ولم يشربن ماءًا، تركن ملوحته تحرق أفواههن.. ونمْن.. بعد أن دثرن أحلامهن جيدًا.. إلا أن حصيصة أكثرهن أملاً، واستمرت وقتًا أكثر في تخيل شكل البيت الذي تشرب الماء حلمًا منه..

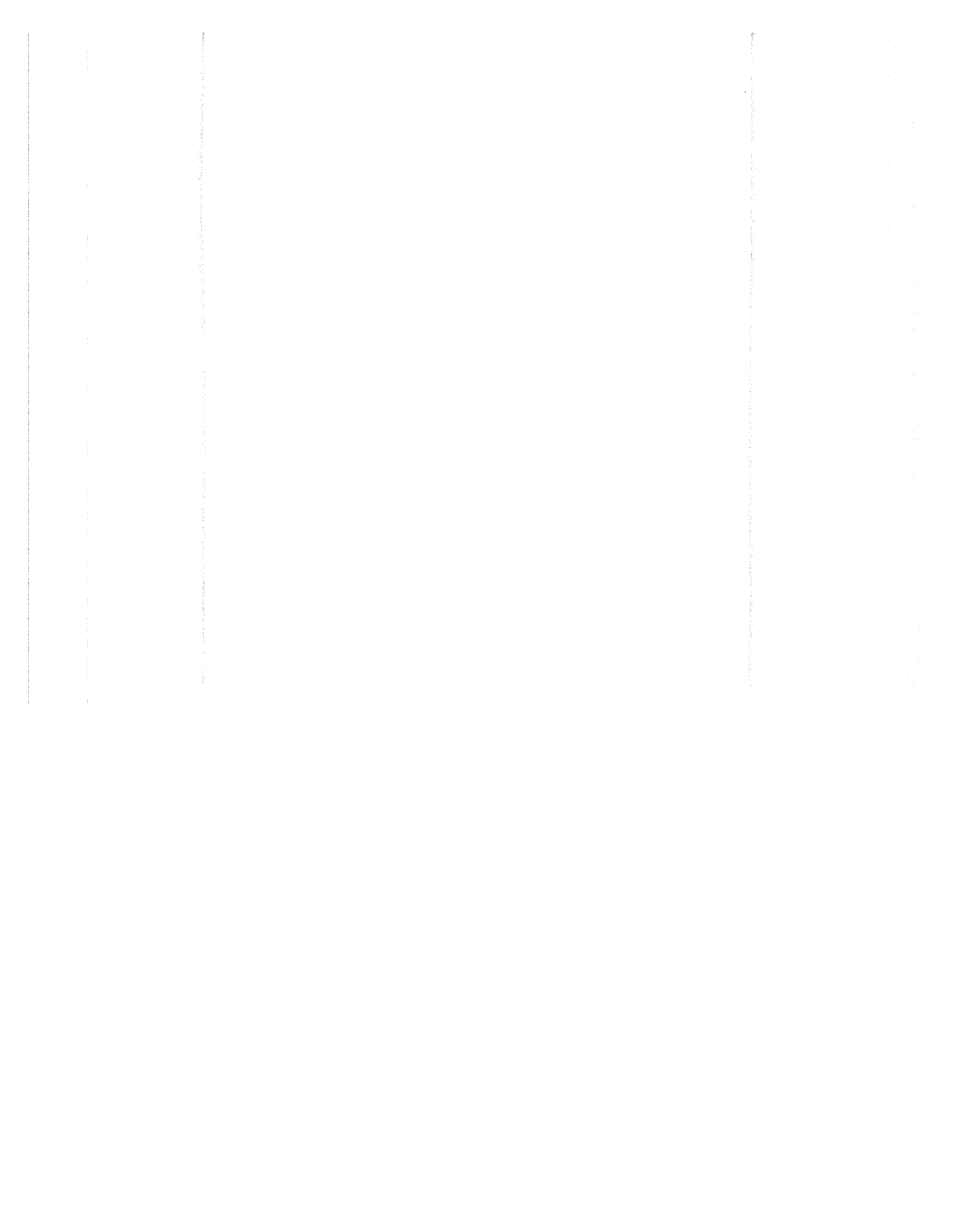
تحركت أحداقهن الجميلة، بحثًا عن ماء زلال يطفيء لظى ملح القرص.. كل واحدة حلمت أنها تشرب بطريقة ما.. لم يحلمن بالبيوت اللواتي تمنينها، ولا سقاهن شباب رائعو الطلعة.. ضحكن كثيرًا من أحلامهن، الأولى حلمت

أنها تشرب ماءًا كدرًا من بئر بيتهم، والأخرى تركض خلف نهر بدا كبيرًا أمامها عندما تصل إليه يبتعد، حتى صحت ريقها جاف بللته بماء البيت الكبير.. وثالثة حلمت أنها تشرب من منزل سيدة أرملة، لا مال ولا بنون لديها.. حصيصة كانت رائقة سعيدة كأنما حلمها أكبر من أن يحكي جرجرنها وأصررن أن تحكي لهن.. فقالت: "لقد كنت في بر براري.. السماء كانت زرقاء والأرض عشب أخضر.. ثم أتت غيمة سوداء، كانت فوق رأسي مباشرة.. صبت عليّ مطرًا لم أذق طعمه أبدًا، شربت، وشربت حتى ارتويت.. ثم وجدت نفسي مبللة بالمطر نثرت شعري ورحت أرقص.. كنت سعيدة جدًا جدًا.." تناقلت البنات الحلم وزوقنه. ووصل إلى أمها.. أتت الأم بسرعة وطلبت منها أن تردد خلفها: (اللهم رب الدنيا وما فيها، كافني شر هذه الرؤيا وما منها) لكن حصيصة كانت سعيدة، رفضت أن تردد الدعاء..

في اليوم السابع.. كانت حرارتها ترتفع.. أمها تقرأ عليها وتبللها كما بللها المطر.. روحها تفيض، كما يفيض المطر..

تبقى بالصحراء.. وحيدة مع شواهد القبور.. تصب مزنة سوداء على قبرها.. (تسف حصيصه التراب وتشرب المطر)..





هلت كل أمطاري.. صبت مزاريب حبي.. التهبت عروقي.. رقصت كل أوتاري.. سكرتُ وانتشيت وأنا الذي لم أعرف الخمرة في حياتي، هي.. هي مها بنظرتها التي تذيب القلوب، بضحكتها، بجمالها الوحشي وشعرها المهمل على كتفيها، ونظارتها الشمسية تمسك غرتها.. يا كل أفراح العالم طبلي وارقصي لي.. بعد هذا العمر..

"مها" أخيرًا أمام ناظري.. يا دقائق وثواني.. اكسري العقارب وانفلتي منها، لتكوني لحظة العمر الجديد.. ها هي أيام صباي وشبابي تعود..

لست ممن تستهويهم الوطنية أو العروبة.. فأنا دائمًا أدع الخلق للخالق.. نعم أكره الإسرائيليين، كما نكره كل اللصوص.. وأحب خفة دم المصريين وشجاعة اللبنانيين وشطارتهم.. لكن ذلك لا يتعدى الإعجاب وينتهي الأمر.. طبعا أحب فيروزهم ووديع الصافي.. أحب الميجنا والعتابا.. ولكن العروبة وما إليها لم تكن جزءًا من همّي.. أتبرع أحيانًا.. كما نزكّي أموالنا فرض يجب عمله.. ووجاهة أيضًا عندما ينشر الاسم مقرونا بمبلغ التبرع السخي لا أكثر ولا أقل.

عندما رافقت أسرتي للجنوب اللبناني كنت فرحًا بالتحرير، شيء يستوجب الفرح ولا أحمّل الأمر أكثر من ذلك.. وكانَ ذهابي بسبب إلحاح ابنتي التي أعطيتها اسم (مها) والتي تهوى الشعر والأدب وكأنما رضعت شيئًا اسمه العروبة. فطارت فرحًا بالتحرير وراحت تراسل الصحف والمجلات لتعطيها.. انطباعاتها وأفكارها على قراءة ما تكتب.

طوال الطريق وهي تنشد:

"أناديكم أشد على أياديكم
وأقبل الأرض تحت نعالكم
وأقول أفديكم".

كنت أزجرها أحيانًا عن تصديع رأسي، وأحيانًا أدعها لأتابع البورصة عبر حاسوبي المتنقل.. وصلنا (قانا) بكت وهي تضع الزهور، ورد وقرنفل وياسمين، وبدأت تتحدث مع مجموعة من الشباب والشابات.. وحمي وطيس الكلام بينهم، فخفت عليها خاصة عندما بدأت تتحدث حديثًا يجعلها محورًا.. عن وحشية الإسرائيليين وأعمالهم التي فاقت ما عمله (هتلر) عن المحرقة المزعومة.. طلبتُ من أمها إحضارها، عنوة سحبتها زوجتي.. إلى بوابة فاطمة ذهبنا.. حدثت نفسي: ربما ستكون هذه البوابة مزارًا للأجيال وتمنيت من كل قلبي أن تكون طريقًا نحو العمق، لقد رأيت يهودًا كثيرين.. بعضهم جمعتني وإياهم صدف اجتماعات عمل، لم أحب التعامل معهم مطلقًا، حقدت عليهم نعم، لكن لم يتعد ذلك نظرة فقط، وينتهي الأمر لكن أن نرى جنودًا أمام أعيننا يصوبون أفواه البنادق لصدور أطفال وشباب عزل لا يملكون إلا بضع حصيات، يقطر رعب لا أعرف كنهه للمستقبل، خاصة والعلم يرفرف حاملاً نجمة داود.. وخطين أزرقين يمثلان (يا لهف نفسي) النيل والفرات، خطان مائيان لإسرائيل الكبرى.. إن حقدًا غضب عني يتملكني ويتأجج.

منعت ابنتي من رمي حجر، ليس حبًا بهم ولكن خوفًا عليها، التفت كي أضع الحجر جانبًا عندما التقت عيناي بها، مها بجانبي، مها حلمي الذي لم يمت، هبت رياح أمطاري، رقصت للجنوب، وكانت ألحان عذبة تعزف في داخلي، ألحان نامت سنين طوال وهاهي تعود، وكأنما ريح قوية أطارت رماد أيامي ورماد شعري عن جذوة حب تتوقد، ابتسامتها غريبة وأنا أدبك مع الشباب، ليست تلك الابتسامة التي عرفتها، وكأنها تستخف بي، أزعجني ذلك قليلاً لكنه لم يطر نشوتي.

كأن الأمر البارحة، (مها) أمام عيني.. تدور في مخيلتي، ونحن رجال مفتولو الشوارب في مجلس عمها، والحديث يدور حول خطبتها لي، وعمها

يستجير بلقب الأسرة الكبيرة، ويتعنت، يتوسله أبي والرجال، لكنه يكابر، ويرد على أبي بخشونة فائقة مما صعد الدم لرأسي، قمت محتدًا وأنا أقول: (والله يا أبي لو عادلوها بالذهب لن أتزوجها، أنت أكبر عندي من أن تهان).

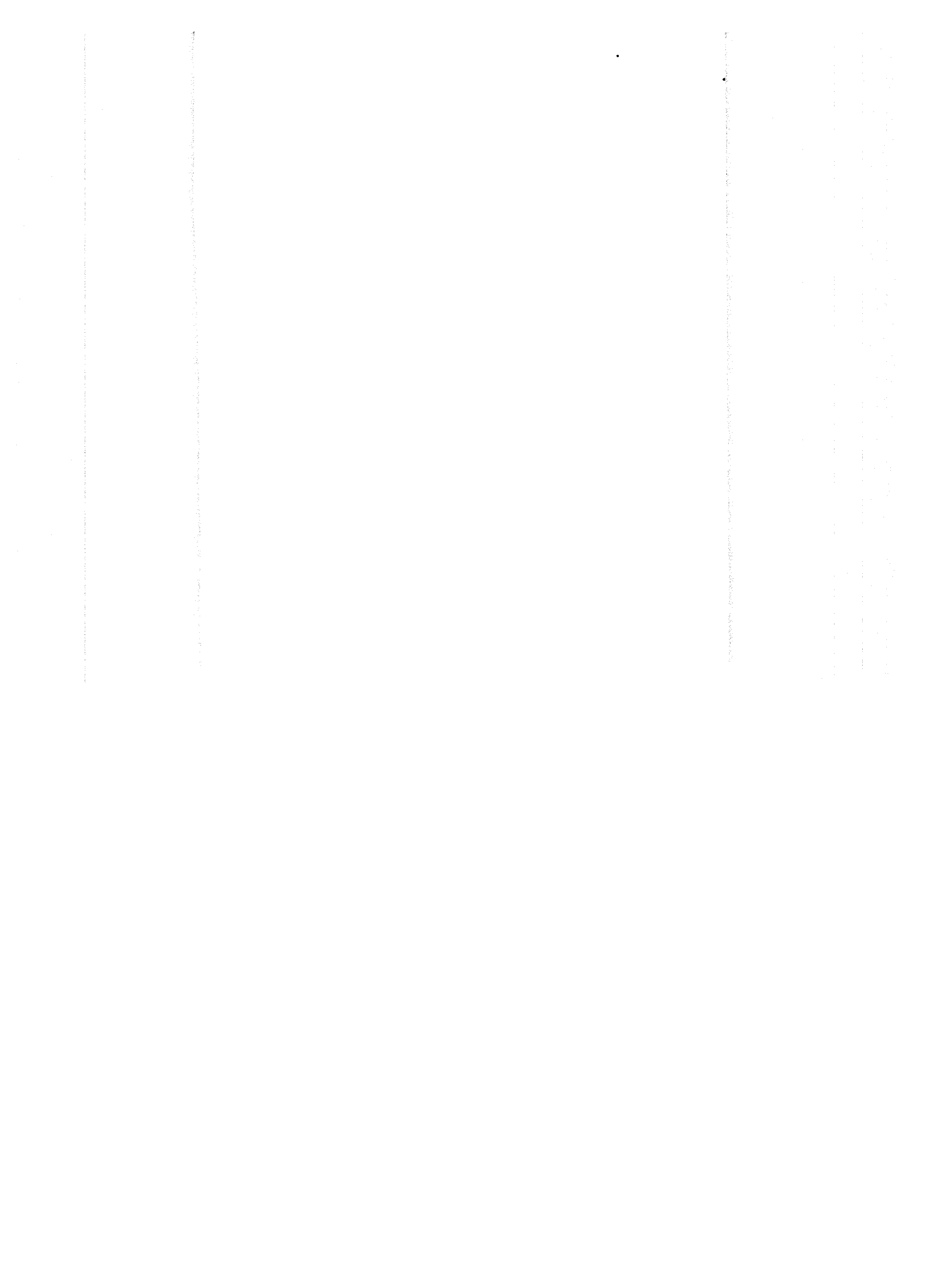
طويت صفحتها وفي قلبي جمرة تتلظى، زوجتني أمي فتاة رائعة الجمال والكمال، ورحت أنجح في كل مجال، ومع الطفرة زدت مالاً، وازددت معه تعلقًا ببيتي وخاصة ابنتي (مها)..

أرسلت أذني تسترق السمع، كأنه صوتها القديم لولا بحة خفيفة فيه، تداعت ليالي الأسطح الصيفية.. يا لهذه المها.. كأنما الدنيا لا تدور بها.. ثبتت في مكانها، كما هي، لا بل تزداد جمالاً، كأنها سجاد كاشاني كلما عتق كلما زاد إشراقًا.

عدت ذاك المراهق القديم، يغني ليلاه، كنا قديمًا نلقي بصدف مقصودة، لكني الآن أبحث عن صدفة في كل زويا لبنان، الروشة، زحلة، العاصي، والمقاهي وحتى الحمراء وغيرها من الأسواق رحت أذرعها بحثا عن الحلم القديم، والصدفة تفر، حتى كانت رحلة العودة، تركت زوجتي وأولادي وكنتي، ورحت أتجول بالسوق الحرة، وكأنما أبحث عن أمل أخير و... رأيتها هي.. هي لن أضيع فرصتي الأخيرة كدت أحاذيها عندما سمعت صوتًا يقول: (منال يا ابنتي أليس هذا عطرك الذي تبحثين عنه؟).. وكأنما الصوت يوقظني من حلم جميل ورائع تذكرت الصوت الذي قدم، والتفت لمصدره، كانت (مها) الأصل امرأة في أواسط الخمسين ثقيلة الممشى يلف شعرها وجسدها حجابها الأسود، التقت نظراتنا، سحبناها بسرعة.. وعدت مسرعًا لأسرتي وصوت المضيف ينادي علينا لنلحق بالطائرة التي على وشك الإقلاع..



مدينة الغيوم



المدينة تغلق أبوابها.

تفتح كي يتوافد الناس عليها، ثم تغلق منافذها...

مدينة يلفها الغمام الكثيف..

هنالك دخان المصانع المحيطة بها غربًا، وأبخرة المجاري...

تتعانق كلها بالسماء فتجعل نهارها أحلك من ليلها..

ما أن يلوح بسمائها فتق من زرقة إلا وتتكاثف غيومًا كي ترتقه..

أنا أسير في جوفها دخلتها أبحث عن عِلم، كنت أشكو حروق الشمس وجفاف الحلق.

ها أنا ذا أبحث عن عِلم جديد.. يخيل لي منذ مصصت إصبعي صغيرًا وأنا أبحث عن عِلم.

كبرت ورغبة مجهولة تحيط بي، والفضول للمعرفة يتأجج في داخلي.. حتّى وصلت هذه المدينة.. كان الوقت خريفًا، تتكسر تحت قدميّ أوراق الشجر الصفراء،.. أسير وأنا أسمع تكتكتها..

في الشارع الكبير كانت جماعة من الغجر بملابسهم الزاهية وموسيقاهم الصاخبة.. دفوف وأصناج وربابات وناي يعزفه عجوز، بعد أن سحبت الموسيقى ظلالها، ظهرت امرأة عجوز بمنديل أحمر على رأسها تمر على الواقفين بصحن، ألقيت ريالاً سمعت وقعه الجميل، ورحت أنظر المرأة وهي تتنحي ببنات لتقرأ لهن بختهن..

لأنني أحب العِلم قربت منها.. أريد أن أرى كيف تقرأ الحظ.. وشوشت البنات وابتعدت بهن، لاحقتها، كانت وحيدة قالت: ماذا تريد مني؟

قلت لها: أريد أن أتعلم.

قالت: العلم لا يُمنح، كم تدفع؟

سحبت محفظتي وناولتها مبلغًا طيبًا.. ضحكَت حتى خرجت أسنانها البنية، ربطت النقود بمنديلها، جرتني لتقول: (يا بني، تخيل، انظر لوجه الشخص وتخيل، ربما هو غريب، ربما هو عاشق، بعض تمتمات ثم موج من الكلمات المتلاحقة وينتهي الأمر).

حاولت أن أعي الدرس لكني لم أفلح فلا ملَكة تخيل لديَّ في هذه المدينة الغمامية.. جلستُ في الحديقة العامة كانت هنالك شجرة خضراء..

بالقرب منى جلسَت فتاة جميلة، قلت في خاطري سأؤنس وحدتي بها تنحنحت وقلت : (جميلة هذه الشجرة الخضراء في وسط هذا الخريف)..

جرّت حقيبتها ألقتها على كتفها وقالت: (إنها بلاستك يا سيدي). تركتني والمدينة تتكاثف غيومها..

الشتاء جاء.. بردًا وصقيعًا.. نتف الثلج تنزل تكفن الأشياء.. وأنا حضرت للمدينة المغلقة الأبواب كي أتعلم.. الشيخ العجوز ممثل بارع يمثل وفرقته في قاعة مغلقة، كل ليلة أحضر العرض أنتظر خروجه أهرول خلفه لكنه يسرع الخطى كأنني شبح، حتى مسكت به ذات ليلة وقلت له: (لن أدعك تهرب مني)، شرحت له حالتي باختصار وأنني حضرت كي أتعلم.. قال: (سأعلمك مقابل أن تزهر لي حديقة منزلي).

وافقت فرحًا. لكنى اكتشفت كم أنا غبي أحرث الأرض نهارًا فيغطيها الصقيع ليلاً ولم يشق وجهها عرق.. طردني.. عاودت السير بالطرقات أشهر ثلاثة أدندن أحيانًا أغاني من طفولتي أراقب الأرض والشجر..

تفتحت أشجار. الليمون عن أزهار بيضاء.. جاء موسم العطاء.. ذاب الجليد وأخذ يشق طرقًا جميلة تنحني وتستقيم وتستدير. فاض الماء.. كنت أترقب زقزقات العصافير أحن إليها.. لا صوت.. مدينة بلا عصافير!! كانت السماء تتلبد بغيوم، غيم يتبعه غيم.. كنت فيما مضى أصنع للغيوم أجنحة وأراها فراشات تطير لكني اليوم لا أرى إلا غيومًا ثقيلة تتراص.. الشمس أحيانًا تشع كعذارى الزمن القديم ثم يتلوها حجاب..

(هو الصيف قادم ستفتح المدينة أبوابها ليخرج من يخرج.. سأكون أولهم).. هكذا فكرت.. لكن صيف هذه المدينة غريب كغرابتها، رذاذ مطر.. وغيوم المصانع وأبخرة المجاري تتكاثف..

أركب وسائل المواصلات.. لا نهاية للمدينة تتغير الأشكال والألوان، تختلف اللهجات واللغات لكن الأبواب مقفلة. الهواء يثقل ويثقل بفعل العوادم.. أتنفس هواءً ثقيلاً.. أسعل وأسعل...أتكوم ككتلة أسمنتية...



ليـل وكرسـي ومـاء



"إلى الحبيبة منيرة التي احمرت عيناها بكاءً عندما يبست شجرة اللوز في بيتنا".

الليــل:

جاء الليل وبقي على غير عادته طويلاً.. طويلاً، العصافير ملّت النوم على الأغصان، تململت. الشجر جاع كثيرًا وهو ينتظر إشراقة الشمس، أوراقه أحضرت أدوات الطبخ.. الشمس كان الظلام يحاربها، أرادت شق غيومه، في المرة الأولى لم تستطع، ولا الثانية، لكنها بالمرة الثالثة بزغت، هللت العصافير وطارت وجدت الحمام جذلاً والأرانب، رقص الجميع رقصة النور.. الأشجار فتحت كل أوراقها مرة واحدة وراحت تطبخ مسرعة، نزل الغذاء للأغصان ومص الجذع ترياق الحياة ونقله مسرعًا للجذر الذي قبّل التربة وراح يتبادل معها عشقًا أزليًا..تحركت ذرات الأرض واهتزت طربًا فتدفقت الينابيع، سبح الأطفال ورددوا أغاني بهيجة.. عندما حل المساء نام الجميع سعداء على أمل ظهور شمس جديدة غدًا، تدحر الظلام..

رحلــة مــاء:

قبّل الربيع قمم الجبال فساحت من عشق حبات الثلج، سارت إلى أسفل الجبال، وهناك مرت على مياه دافئة رقراقة، تصافحت المياه مع بعضها البعض، وجلست تحكي حكاية الرحلة العذبة، ثم تعانقتا وراحتا تنزلان بسرعة عجيبة وهما تتضاحكان، قالت مياه أعالي الجبال: (سنصل قريبًا إلى أطفال عائدين من مدارسهم سيفرحون كثيرًا، ويسبحون ثم ينثروننا على بعضهم البعض، فننزلق على الأجساد الغضة، ونسير، نسير ونلاقي الصبايا

حيث يرفعن ثيابهن ويدفن أنفسهن فينا وسيغار منا كل شباب القرى التي نمر عليها).

قالت مياه الينابيع: (عندما أصل معك إلى أسفل سأفارقك حيث يأتي لي كل الشيوخ والعجزة سأدفئ أرجلهم فينامون نومًا هانئًا سعيدًا فيحمدون الله ليل نهار على نعمته).

تدحرجت المياه وهي تغني أنشودة الحياة في طريقها مرت على أراض كثيرة وأحضرت معها غذاءًا جيدًا لزرع قادم بنكهات متنوعة.. هناك قبيل أسفل الجبل وجدت كومات رجال بسحنات غريبة أرعبتها، تمنت لو تستطيع أن تهجم عليهم هجوم الطوفان، هؤلاء خلطوا المياه بالسموم والدم المسكوب من أطفال وصبايا ونساء بلا أثداء. غضبت المياه واختبأت داخل الأرض، لكنهم أحضروا أدواتهم واغتصبوا بكارة الأرض ومصوا المياه..

شـجرة اللـوز:

جفّت شجرة اللوز، أسقطت أوراقها ورقة، ورقة، وبقيت عارية، جاء ربيع بعد ربيع واللوزة لم يدفئها ورق، هجرتها العصافير، البنت الصغيرة هالها سفر العصافير وأن الشجرة لا تطرح اللوز الأخضر، ولا تُظِل أحدًا، شكت ذلك لمعلمتها وصويحباتها، أحضرت لها المعلمة أدوات الرسم والأوراق الملونة وأعددن لوحة جميلة زينت الحديقة.

لكن شجيرات أخر يبسن أيضًا أصبح الناس يصنعون منها أسِرّة وكراسي، والكراسي بعضها جميل مزركش وبعضها تكاد مساميره تشق وركَيْ من يجلس عليه، هناك كراسي للكبير وكراسي للصغير، وعرف العالم والدول أشياء كثيرة منها أن تقام الحروب ويباد شعوب وأن يقتل الأخ أخاه بسبب كرسي، خاصة ما كان مزركشًا منها..

ليتـه لا يعلـم
أنـي أعلـم



ليس من عادتي أن أتدخل في عمله، عمله عالم خاص وواسع، مليء بالأرقام والأسماء الرنانة. وأنا امرأة تركض، خلف خبر أو تحقيق، أو تحقق حلمها بنشر قصيدة لها، هذا الشعر الذي أعشقه منذ وعيت فك الحرف، وعرفت كيف يمكن أن تمتزج الكلمات لتخرج لنا سحرًا اسمه القصيدة.. أكره الرد على الهاتف، رغم أن الهاتف يأخذ جزءًا كبيرًا من عملي، لكن لا أحب أن أسأل عنه، أو أسمع الأسماء التي تطلبه، له عالمه، ولي عالمي، لكننا نلتقي كثيرًا كما تلتقي أقطاب المغناطيس، تتعانق أفكارنا في أحيان كثيرة، مع (زهرة المدائن) لفيروز.. أو (أراك عَصِيَّ الدمع) لأم كلثوم..

في عالم الصحافة حيث ألهث، أستمتع أحيانًا، وتشتد أعصابي أحيانًا كثيرة، كانت سعاد زميلة الحرف، ولصيقة الأفكار.. معًا نخرج لحضور الاحتفالات، معًا نخطط للتحقيقات.. ومعًا، نتجاذب أطراف الحديث وعندما يداهمنا الجوع نركن إلى أقرب مطعم وجبات سريعة لنسكت صراخ معدتنا..

وحدثتني سعاد عن مشكلتها، حدثت وبكت، تقطع قلبي لأجلها، لا أدري كيف ممكن أن تتحمل كل ما روته!! أعرف أن الرجال مختلفون، وأن هناك منهم من تطيب أيامه ولياليه، ويغزل أشعة الشمس دثارًا لحبيبته، وأعرف أن هنالك من لا يرى إلا كل شيء سيئ، ويقلب الحياة نكدًا، لكني لم أسمع بما روته صديقتي عن زوجها، وهو مزيج بين الجن والعفاريت، مزيج من الخوف والرعب.. وإن كان يداهمني سؤال.. إذا كان بهذا السوء، فكيف يدعها تعمل بوظيفة متحركة، كثيرة العلاقات؟.. كانت برد كل ذلك لأجل المال أنه يعصر أعصابي عصرًا..



وكان أحمد زوجي يكبر في نظري، لم يسألني مرة كم أقبض؟ ولا ماذا أفعل بنقودي؟ وكان يعجب بتحقيقاتي الصحفية، ويمط شفتيه ببطء أحيانًا استخفافًا بأشعاري.. وأما الأخبار فيراها، ليست أخبارًا..

لم أكن أتوقع أن أحمد قد يكون مهمًا لسعاد.. إلا عندما فاتحتني بعد أن لمّحَت كثيرًا، لا بد أن يأخذ أحمد قضية طلاقها من زوجها وأنا لم يسبق أن تدخلت بعمل أحمد ولا توسطت لأحد معه، لكن أمام إلحاحها.. حدثته عن مشكلتها.. وأسهبت، ربما أضفت نكهات خاصة، ليقبل أحمد قضيتها.. وأحمد لم تكن الأحوال الشخصية جزءًا من اهتماماته في المحاماة..

إنه مع عالم الشركات، تصفية واندماج، ملاحقة الدائنين وما إليه في عالم التجارة والأموال.. وهو يقسم أنه لا يضيع وقته مع امرأة تأخذ قضيتها أعوامًا في أدراج القُضاة، ولا يحب نزاعات البنين وحضاناتهم، ولا تحرق أعصابه مشاكلهم.. لكني ألح وأستعطف.. وأشرح حتى يلين.. وتبدأ سعاد ثالثتنا بأشياء كثيرة، إيصالها للمحكمة والعودة بها، اضطرارنا لأكل لقمة مع بعض.. مكالماتها الكثيرة لزوجي لأجل القضية، وتصرخ حاستي.. إن مرآة السيارة تسقط على وجه سعاد.. لكن أستغفر الله، فأحمد أكبر من أن تؤثّر به امرأة ذات مشكلة عابرة.. أحمد ببراعته، يتفنن في إثبات الضرر.. ويُحضر الشهود والمستندات.. أعجب لأحمد كيف استطاع أن يكسب لها قضية الطلاق وتعويضًا قدره خمسين ألف ريال، تنازلَت له عنه مع أتعابه.. وكنت أرى النسوة يضيع شبابهن هدرًا بحثًا عن الطلاق، نصف أعمارهن يقضينها في المحاكم بلا فائدة، وإن تفضل القاضي وحكم بالطلاق، عليها أن تدفع للزوج مبلغًا، تقضي عمرها الباقي بتسديد الديون.. وأحمد ينسل القضية، ويخرج سعاد مزهوة.. ذلك جعلني أطلب منه أن يفكر بقضايا الأحوال الشخصية لكنه مازال متمسكًا برأيه..

عادت أمورنا تستقر، وقلت مكالمات سعاد، قُلت ارتاحت.. كذا قلّت أعمالنا المشتركة.. في خاطري كنت أتمنى ذلك منذ زمن، أريد أن يظهر طابعي الشخصي على أعمالي.. وإن لم نفترق لا زلنا في مكتب واحد..

لكن بدأ شيء يتحرك في داخلي.. خروج زوجي المفاجئ ليلاً.. لقد تعودت صمته، لكن صمته الجديد غير عادي.. وتوجست خيفة.. خاصة عندما بدأ الهاتف يدق دقتين ثم يصمت.. فيغادر زوجي بعد ساعة.. وبدأت الأمور تتعقد داخلي.. وأنا أستنشق الرائحة الجديدة والغريبة، حتى كان وانقطعت سعاد عن العمل.. وسافر زوجي.. استعذت بالله من الشيطان.. وحاولت أن أطرد أفكاري وهاتف زوجي يدق ثلاث مرات يوميًا، شيء لم أتعوده، لكن يريحني أحيانًا ويعكر أحيانًا أُخَر.. ترتجف أصابعي وأنا أضغط أرقام بيت سعاد.. ترد الخادمة بلهجة مكسرة.. مدام ما فيه، مدام سافر..

تلف بي الدنيا، ولا تستقر.. هل هي معه؟ أم ترى هي بجهة وهو بأخرى؟.. يا الله ما أطول الوقت حتى يعود.. ويأتي.. يقبل الصغار، يحضنني لا.. لا أدري أي إحساس بي أشعر أن ذراعيه سجني.. يدخل الحمام يدندن لحنه المفضل.. أسمع صوت المياه المتساقطة على جسده.. أفتح الحقيبة.. أريد أن أنظم ملابسه كعادتي.. وتمسك يدي، شيئا نسائيًا صغيرًا، مشطها المذهب أثر يجمد أطرافي، أحس فتح الباب.. أخبئ ما بيدي بسرعة.. وأتصرف بآلية.. أحاول أن أضبط انفعالاتي.. فالوقت حرج، ولا أريد أن أفعل شيئًا أندم عليه لقد آتاني الله قوة أعصاب سيطرت على مشاعري.. اندمجت مع الأطفال وإعداد العشاء.. ذهبت لعملي صباحًا.. وأخرجت أفكاري.. ورحت أقلبها على محاملها العدة.. البيت.. الزوج..

الأطفال.. عالمي الجميع والصدع الذي يشق رأس أسرتي.. بيدي أخيطه وبيدي أجعله يتناثر.. أشعر بحمى، يرتجف بدني.. أستخرج كل ما حوته معدتي.. أنقل بسرعة للمستشفى.. وأكتشف أنني حامل كيف سهي علي العد، فلم أعرف.. حول سريري الصغار وأبوهم.. أشعر باللهفة والخوف في عينه..

سعاد لم تسأل.. لم تأت.. أعود للبيت، الهاتف يدق دقتين ويصمت.. وزوجي لا يتحرك.. ولم يعد يترك البيت إلا لعمله.. وهاتفه لم يعد همسًا.. كيف أتصرف أنا.. إن هي نزوة كانت ومضت.. ولكني كنت أريد أن أطمئن.. تحدث زوجي عن رغبة أخيه الأرمل، وأب الطفلتين بالزواج من امرأة طيبة تصون بيته وبنتيه.. تحرك خبث في داخلي فقلت بكل براءة: (سعاد.. إنها امرأة طيبة)..

شهق زوجي: أعوذ بالله!!

أقول له: تتعوذ بالله !! إنها امرأة طيبة ولا يعني طلاقها نهايتها..

رد: "أنت الطيبة وعلى نياتك.. رجاء دعيها، لها عالمها، حياتها ولا تدخليها حياتك"..

قد يكون هبط على قلبي مطر وسمي، لكنه مطر ملوث بكل عوادم البشر كنت أريد أن أصرخ (وأنت) لكن ألجمني بيتي والأطفال، أنا واحدة من ملايين ممن يبتلعن الأمواس ليحمين السقف والأطفال.. أعرف ذلك وأعرف أنني أعدته تمامًا كما يعود إناء كريستال مشروخ، وأعلم أن الشرخ بقلبي، أعمق وأكبر، لكن أتمنى من كل قلبي أن يستمر زوجي لا يعلم أنني أعلم وأن الأثر أعدمته بيدي..

کوبتشینو



هـــو:

كثر بحثي عن بطلة أتعلق بها كي أكتب قصتي الخامسة، فأقبض الألفي ريال.. في أحسن مقهى يصنع "الكوبتشينو" جلست. فكري مشغول بالقصة القادمة، أحاول أن أجمع مما أرى مادة لها، أحرك فيما بعد أحداثها، كنت أبتعد كثيرًا عن أختي الجالسة قبالى تثرثر، وأرد بإيماءة على حديث لم أفقهه.. أجول بنظري وأستمتع بمذاق "الكوبتشينو". وقع نظري عليها، كانت عباءتها قد تهدلت قليلاً مما أتاح لي رؤية ثوبها الأزرق.. عيناها تشعان من خلف النقاب وهجًا سماويًا، شعرت أنها تدخل لب قلبي، وأنها ستكون بحرًا أغرف منه حكاية قصتي.. ثم أتركه وأمضي.. تجرأت وهززت رأسي.. يا أبواب السماء!! إنها تومئ لي، كذبت نظري، لكنه كان صادقًا.. إذ مع الإيماءة الثانية تحريك للفنجان في يدها.. يا كل حروف الأرض تعالي، حان وقت قطافك سأصنع منك قلائد لعرائس بحري.. يا كل حروف اللغة اهبطي سأنبت منك زهور أقحوان وياسمين أنثرك على القصة التي حان مخاضها.. وأهز نخلك هزًا ليتساقط الدُّر..

هـــي:

عندما التفت وجدته، تمامًا كما حلمت ببطل قصيدتي.. كنت أتجرع "الكوبتشينو" لم أكن أحبها، كنت أريد شيئًا دافئًا لحنجرتي، علّه يخفف حدة زكامي.. صاحب المقهى يقدم الشاي مع حليب بارد وقهوة أمريكية لا أستسيغها...

منتشيًا كان وهو يحضن في كفيه كوب "الكوبتشينو".. يلقي نظرة على حذائي.. ألف عباءتي جيدًا وأتأكد أن ثوبي يغطي كاحلي..

رصدته ببطء، ورسمته كما شئت.. فتحت فمه بدرر الكلام.. رحت أزوق بها قصيدتي، في أعماقي انطلقت قهقهات وهو يومئ لي برأسه، للأرض نظرت، قرب المقعد، صمتُ، فكلمني متتأتئًا، تبعثرت كلمات تحيته فجمعتها ككلمات متقاطعة، عرفت شقيقته تلميذة في مدرستنا، وكان وعد آخر بنفس المقهى.. وموعد تلاه موعد.. وأنا كلما عدت للبيت حذفت شيئًا وكتبت أشياء بالقصيدة، حركتُ مشاعرها ورسمتُ زهورها وأكملْتُ لها رش العطر..

حدثني كثيرًا عن قصصه، وعن أحلامه قال لي: (كنت أكتب القصة من خيال، أنا سأكتب أروع قصة لأروع امرأة عرفتها).

وتجرأ أكثر فقال: (عيناك بحر، دعيني أغوص بهما، أحمل أغلى الدانات لأجمّل بها قصتي).

همست له وأنا أحاول دهن كلماتي: (عيناكَ تحيراني).

قال: (أتتبع قصائدك. لِمَ تنشرين باسم مستعار؟؟)

قلت له: (الشعر مرآة لداخل صاحبه، وأنا عندما أخلع الأردية عن مكنون ذاتي، لا يعلم الناس من أنا؟؟)

قال كلمة انتشيت لها إن العبارات الشعرية في قصائدي تكاد ترقص.

عندما سألني عن قصصه، قلت له كاذبة إنني أقرأها كلها. وألح بالسؤال ففبركت له حكاية. قال جذلاً: (انظري كيف تتغير الرؤيا بين الكاتب والمتلقي، ليتني فكرتُ كما فكرتِ ربما كانت قصتي ستكون أجمل).

هـــو:

كل يوم أعود للمنزل، أبحث عن كلماتي، عن الحكاية والحدث، عن زمان ومكان، تطير منى الأحرف بعيدًا وتبقى عيناها، بهما أصبح وأمسي، قلت في خاطري سأسلوها فقط بعد تلد القصة، المحرر يطالبني وأزمتي تشتد، تتوالد اللقاءات ولا تلد القصة.

أحبها سأعترف بملء فمي، سأكتب معها أجمل قصة.

هـــي:

سعيدة أنا اليوم قصيدتي اكتملت ونُشرت، سأمزق الأردية التي ألبستها إياه.

هو، يبادرها فرحًا، بروعة القصيدة يناقشها بالصور الشعرية والخيالات، ينتفخ كأنه سيف دولة المتنبي، ينتشي أكثر ويجمع شجاعته ليطلب القرب. هي تفاجأ بالطلب تهب واقفة تقول: (آسفة لا أعيد قصائدي مرتين) تمضي ويمضي وتبرد الكوبتشينو.

